قمر

رواية

obeikandl.com

© وكالـة سفنكس

سلسلة إبداعات عربية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠١٤
رقم الإيداع ٣٦٢٥ / ٢٠١٤
ISBN: 978 - 977 - 6299 - 98 - 12

وكالة سفنكس للترجمة والنشر والتوزيع
٧ شارع معروف - الدور السابع
وسط البلد - القاهرة
ت/ف: ٢٥٧٩٢٨٦٥
موبايل: ٠١٠٦٨٨٠١٥٤٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

سلسلة إبداعات عربية

روايـــة قمـــر

تأليف/ مريم البنا

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

Sphinx Agency © 2014

obeikandl.com

مريم البنا

قمر

رواية

وكالة سفنكس

obeikandl.com

إهداء

إلى أبى الأستاذ الدكتور.. محمد كامل ياقوت

إلى أمي السيدة.. فاطمة علام

ليتني كنت التراب الذى تتوسدانه..

obeikandl.com

إهداء

إلى من شاركوني قصة قمر

إلى العائلة الملائكية الجميلة الرائعة التي تعرفت عليها بسبب قمر.

إلى الدكتور العلامة الإنسان/ بيرج يعقوب

إلى زوجي الشاعر/ بهاء چاهين

إلى ابنى الفنان/ عمر چاهين

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

لا شيء أسوأ من أن تنام وأنت تعلم أنك ستستيقظ في رعب على صرخات من تحب. فطوال الليل يحدث الاغتصاب الجماعي، ويأتي الصباح فأجد قمر في أسوأ حالاتها بين الإنهاك والألم. وأصبح هذا يحدث كل يوم, كل صباح. أو أنها تصرخ بسبب ما تفعله أمها (بلبل) بها، حيث إنها سرقت أولادها وأخذت مكانها، وكلما اقتربت قمر تهجم عليها وتعضها وتخربشها في وجهها حتى بات كله ندوب وجروح حمراء.

(٢)

أعرف أنني أخطأت.. منذ اللحظة الأولى. كنت أرقب قمر وأختها وعمرهما حوالى شهران من النافذة، هما وأمهما: تلك الكلبة البنية التي بدأت علاقتي بها منذ أن رأيتها في الطريق، وأطعمتها فصارت منذ ذلك اليوم تعرفني وتأتى تتمسح بي فأربت عليها.. لم تكن علاقتي بها أكثر من ذلك. أراها أحيانا ولا أراها أحياناً أخرى، كما رأيت ابنها الذى كان يسير معها طوال الوقت ولم يكونا يفترقان. وقد حاولت أن أجمد علاقتي بهما حتى لا أرتبط بهما عاطفياً, ولكن..

ذات صباح رأيت ابنها راقداً وسط الساحة التي خلف منزلنا، وظل هكذا فترة ثم قام يترنح فاعتقدت أنه جائع. نزلت على الفور وقدمت له طعاماً فلم يأكله. وفى اليوم التالي رأيته راقداً مرة أخرى ولكن تلك كانت رقدته الأخيرة.

بعد عدة أشهر أنجبت بلبل اثنين.. لونهما بيج فاتح على ذهبي. حاولت كثيراً أن يقتصر الأمر على رؤيتي لهما من النافذة، إلى أن جاء يوم سمعت فيه صراخاً وعويلاً فنظرت من النافذة: رأيت أحدهما يزحف تحت إحدى السيارات وذيله يقطر دماً، والسيارة التي قطعت ذيله مازال صاحبها يحاول أن يركن غير عابئ بصرخات الكلب الصغير، فأردت أن آخذ الكلب الجريح إلى دكتور «بيرج يعقوب»، الطبيب البيطري المعروف - الذى يعالج كلبتي الجريفون «لى لى» التي في المنزل - لكنني لم أفعل, لأن ذلك الكلب هو وأخوه (أو أخته) لا يعرفانني، وربما يعضانني إن فعلت، فأقعدني الخوف عن نجدتهما.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها صرخاتهما، ففي أحد الأيام سمعت صراخهما عبر النافذة. كان ثلاثة «أشرار» صغار يقذفونهما بالطوب بدون أي سبب، فاختبأ الكلبان تحت إحدى السيارات لكنهم ظلوا خلفهما ونامواعلى الأرض وأخذوا يقذفونهما بكل الطوب الذى تمتلئ به أيديهم وجيوبهم، والكلاب تصرخ ولا تجد مفراً تهرب إليه. وأيضا كانت أمهما «بلبل» تضربهما كثيراً وتنبح فيهما وتهشهما، الأمر الذى جعل مقاومتي تنهار. فأخذت طعاماً ونزلت واقتربت منهما, فجرى الاثنان واختبئا تحت إحدى السيارات. وقفت قليلاً في انتظار أن يقترب أحدهما من الطعام فلم يفعلا، فصعدت إلى الشقة وأنا في حالة غضب وضيق. وفى اليوم التالي نزلت وأخذت لهما طعاماً فاقترب أحدهما، ولاحظت أنه يرتعش، ليس من البرد لكن ربما من مرض

أصابه. ورأيت جسده يعلو ويهبط في تشنج عدة مرات في الدقيقة الواحدة، فأشفقت عليه واقتربت منه وقربت له الطعام فأخذ يأكل، وأخذت أربت على ظهره قليلاً ثم تركته يذهب إلى أخته بجوار إحدى السيارات.. تلك كانت «قمر». ولم أكن قد أسميتها بعد، لا هي ولا أخاها، فأنا لم أكن أحبها وقتها، لأنها كانت دائماً تخاف الاقتراب مني.

(٣)

وفى أحد الأيام أخبرني بواب العمارة بأن الكلب الأبيض الصغير مات. فسألته إن كان السليم أم الذى كان يرتعش؟ فقال: «الذى كان يرتعش». فحزنت عليه كثيراً، لأنه كان يأتي إلى ويتركني أربت عليه وبمرور الوقت توطدت علاقتي به وأصبحت أمه.

لا أدرى ما الذى جعلني في اليوم التالي أحضر طعاماً وأذهب إلى الكلبة الأخرى. التي فيما بعد سأسميها عشقاً «قمر», لكنها ابتعدت، وانتظرت حتى ابتعدت أنا ثم أخذت تأكل. اقتربت منها وأخذت أربت على ظهرها، وللمرة الأولى تتركني أفعل ذلك. ومنذ ذلك الحين صرت أحضر لها ولأمها «بلبل» الطعام كل يوم.

(٤)

وذات صباح رأيتها تقف على الرصيف كقمر جميل في السماء فأسميتها «قمر»، وسرعان ما أصبحت مصدر سعادة كبيرة لى. كلما رأتني قادمة إليها تهرع ناحيتي وكانت تبدو كغزالة بيضاء أو كباليرينا شعرها ذهبي تمشى على أطراف أصابعها. وما إن تقترب من الطعام الذى أضعه لها حتى تزوم أمها «بلبل» وتكشر عن أنيابها، ثم تهجم على قمر، فتهرب قمر وتأكل أمها كل الطعام وحدها.

لم أدر ماذا أفعل؟ جربت أن أفرغ زجاجة المياه التي أحملها معي - لأضع لهما الماء ليشربا - على رأس بلبل، فكانت تبتعد قليلاً، وأهرع أنا إلى قمر الجاثية وأحاول أن أوقفها لتأكل، لكنها لا تأكل وأرى آثار العنف والدم عليها بسبب ما تفعله أمها فيها، فأصاب بهم وضيق، وأعود كما كنت لا أدرى ماذا أفعل.

في تلك الفترة أصبحت أكره بلبل، وأخذت أفكر فيما يمكن عمله لكى تأكل قمر في أمان وسلام. فكرت في أن أضع لقمر الطعام في المقعد الخلفي لسيارتي، وفعلاً حاولت أن أحملها إليه، لكنني لم أستطع حملها. وأخيرا اهتديت إلى الحل: أن أضع لهما الطعام على ورقتين منفصلتين وبعيدتين عن بعضهما، وأظل واقفة بجوار قمر وفى يدى زجاجة مياه تحسباً لأى هجوم من بلبل. كنت لا أتركها حتى تأكل وتشرب وتشبع. وعلى الرغم من شراسة «بلبل», أسميتها «بلبل», وأنا أعلم أنها أبعد ما تكون عن البلابل، بل هي أقرب إلى الغربان أو

الحـدآت، لكننـي كنـت أشـفق عليهـا, لأنهـا كانـت قـد أنجبـت كلبتـين قبـل قمـر وأختهـا وسرقهـما الزبـال وعمرهـما أيـام، وظلـت هـي تبحـث عنهـما وهـى تصـدر أصواتـاً أشـبه بالبـكاء، لم تجدهـما أبـداً، وكنـت أشـفق عليهـا أيضـاً لأنهـا كـبرت في السـن وفقـدت الكثـير مـن وزنهـا، وفى لحظـة حنـان أسـميتها «بلبـل».

(٥)

في أحـد الأيـام، سـمعت صـوت بـكاء جـرو صغـير، فنزلـت إلى المـكان الـذى يصـدر عنـه الصـوت، فلـم أر شـيئاً. واسـتمر هـذا البـكاء المتصـل أحيانـاً والمتقطـع أحيانـاً أخـرى يومـين، وأخـيراً عرفـت مصـدره: كان جـرواً صغـيراً لونـه رمـادي فاتـح لم أعـرف مـن أيـن جـاء ولا مـن أمـه؟ وضعـت لـه علبـة صغـيرة فيهـا لـبن بسـيريلاك بالقمـح، فأخـذ يـشرب في نهـم ثـم جـرى ناحيـة قمـر. كنـت أراه دائمـاً يسـير معهـا ويجـرى خلفهـا، ويحـاول الصعـود عـلى ظهرهـا، وإذا نامـت عـلى أحـد جنبيهـا ينـام هـو عـلى بطنهـا ويلعـب معهـا في شـقاوة بريئـة، فأعجبـت بخفـة ظلـه وظرفـه، فأسـميته «ظريـف» وأصبـح ظريـف ابنـى الثالـث بعـد «قمـر» و«بلبـل».

(٦)

أحببت «ظريف» هذا. فكلما نزلت لتقديم الطعام لهم أراه يأتي إليّ مع «قمر» وهو يتدحرج بين يديها وأحياناً بين رجليها. أما «بلبل»، فكانت تمشي وحدها في جلال وشموخ. وكان «ظريف» يخاف منها, فهي دائماً تنهره، وأحياناً تدفعه بقوة فيقع ويصرخ ثم يقوم ويجرى بعيداً.

بعد أيام لم يعد «ظريف» يشرب اللبن والسيريلاك، بل كان يتجه ناحية الأكل الذى أضعه «لقمر», فهو لا يجرؤ أن يقترب من طعام بلبل. وكانت قمر تصرخ فيه هي الأخرى لو اقترب من طعامها، لكن برفق. وكانت كلما وضعت في فمها قطعة عظم كبيرة تأخذها بعيداً لتأكلها على مهل, فكان ظريف يتسلل إلى «نصيبها» ويخطف بعضاً منه ويجرى، ثم يحاول أن يعيد الكرة فيفلح أحياناً ويفشل في معظم الأحيان.

بعد ذلك أصبحت أعد «لظريف» طعامه وحده وكأنه كبير.. نفس الطعام الذى يسميه الجزارون «تناضيف وعكش»، وهو قطع عظام أطلب من الجزار أن يقطعها قطعاً صغيرة مع بعض القراقيش. كنت أسلقها لهم مع بصل وحبهان ومستكة وورق لورا وجزر وكوسة وأحياناً بسلة، وبعد أن ينضج هذا الطعام جيداً أقطع فيه بعض أرغفة الخبز البلدي أو أضع فيه أرزاً.

(٧)

كان «ظريف» يأكل كثيراً، وكان يبدو ظريفاً وهو يأكل، فهو يلتهم طعامه بسرعة وكأن شخصاً ما سيخطفه منه.

كبر ظريف بسرعة وخمنت أن عمره ثلاثة أشهر، أي أنه بلغ العمر الذى يتم فيه تطعيم الكلاب ضد الأمراض والسعار، فاتصلت بعم صابر ممرض دكتور «بيرج» ليحضر إلينا ومعه التطعيم، لأنني لا أستطيع أن آخذهم هم الثلاثة إلى العيادة، خصوصاً مع عدم وجود طوق وسلسلة لكل واحد منهم. كانت الخطة تقتضى أن آخذهم إلى «منور» عمارتنا، وهو أشبه بحجرة واسعة بلا سقف وله باب يقفل، وبالتالي هو أنسب مكان لتطعيمهم دون أن يجروا ويصعب الإمساك بهم، واتفقت مع عم صابر على الحضور صباح يوم الجمعة.

وجاء صباح يوم الجمعة فذهبت لإحضار عم صابر لأنه لا يعرف منزلي، ووجدته قد أحضر التطعيمات والسرنجات الثلاث ذات الإبر القصيرة الصغيرة، تلك التي يحضرها دكتور «بيرج» من الخارج حتى لا يتألم الحيوان أثناء حقنه. وأحضر أيضاً الكمامة وجونتى كبير سميك ومبطن حتى إذا ما حاول كلب عضه لا تصل أسنانه إلى يديه وبدأنا «ببلبل» لأنها كانت أكثر واحدة أخشاها، فهي تبدو مثل فتوة أو زعيمة عصابة، لكنني فوجئت بها تأتى بسلاسة وفى أدب جم بعد أن استدرجتها بطعام كنت أحمله في يدى، وما أن دخلت المنور حتى أجلستها. فاقترب منها عم صابر, فأخذت أربت عليها وهى واقفة في مكانها لا تتحرك ثم ألبسها هو الكمامة وفى

سهولة شديدة أعطاها الحقنة دون أن تنبح أو حتى تتحرك، ففرحت وتركتها تأكل الطعام واعتقدت أن باقي التطعيمات ستتم ببساطة. وبمنتهى التفاؤل أخذت أنادى على «قمر» و«ظريف» إلا أنهما ترددا في الاقتراب منى, وحتى بعد أن شما رائحة الطعام فما أن رأيا عم صابر حتى ابتعدا، وعندما اقتربت من «ظريف» اختبأ تحت إحدى السيارات فانحنيت بجوار أسفل السيارة وأخذت أناديه وأقرب منه الطعام، فأقترب قليلا وحاول أن يخطف شيئاً منه فأخذت في التراجع إلى الخلف لكى أستدرجه فيخرج من تحت السيارة وظللت هكذا إلى أن وضعت له الطعام بعيداً قليلاً عن السيارة فخرج وأسرعت بالإمساك به، وكنت قد ارتديت جونتى عم صابر تحسباً لأى عضة، فأخذ يصرخ ويصرخ بأعلى صوته، لكننى لم أهتم بذلك ثم أحكمت سيطرتي عليه وأعطاه عم صابر الحقنة وبعدها وضعت له الطعام فتركه وذهب بعيداً.

بقيت قمر.. وما أن اقترب منها عم صابر حتى ابتعدت وظللنا هكذا مدة ساعة تقريباً، فأيقنت أنه لا جدوى ولا إمكانية لتطعيمها، فشكرت عم صابر وأعطيته نقودا وقبل أن أرجعه مرة أخرى إلى العيادة ظهرت شابة أمورة تشبه بينولوبى كروز واقتربت منى وسألتني: لماذا يصرخ الكلب؟ فقلت لها لأنه كان يأخذ حقنة التطعيم، وسألتها إذا كانت بنت السيدة الطيبة التي رأيتها عدة مرات تقدم الطعام لبلبل وقمر وظريف فردت بالإيجاب ثم شكرتها على اهتمامها وانصرفت.

كانت تلك هي المحاولة الأولى لتطعيم «قمر». بعد ذلك ذهبت إلى دكتور بيرج واقترحت عليه أن أعطيها حبوباً منومة

لتأخذها وتنام ثم نعطيها الحقنة، فسأل عم صابر عن وزنها بالتقريب وبناء على إجابته أعطاني ثلاث حبات وطلب منى أن أسحقها جيداً ثم أخلطها بكبدة الفراخ والقوانص لأنهم يحبونها وستأكلها على الفور.

وفى اليوم المحدد جاء عم صابر فطلبت منه أن يظل جالساً في السيارة - التي ركنتها قريباً من المكان الذى فيه قمر لأن قمر إذا ما رأته فسوف تهرب بعيداً وتنعدم بذلك أي فرصة في تطعيمها فهي تخاف من البشر، ولأنها أيضا سمعت صراخ ظريف في المرة السابقة ووفقاً لنظرية «بافلوف» فقد ارتبط في ذهنها عم صابر بالألم والصراخ. لكن هذه المرة حرصت ألا ترى عم صابر.

اقتربت قمر من الطعام الذى أعددته لها ووضعت فيه الأقراص المنومة وأكلته. وانتظرت حوالى ساعة لكى تنام فيعطيها عم صابر الحقنة لكنها لم تنم. وأثناء ذلك كنت أتحدث بالموبايل مع عم صابر - على الرغم من أن المسافة بيني وبينه حوالى عشرة أمتار - لكى أعطيه تقريراً عن حالتها وأصبره، وطلبت منه ألا يقترب منها تحت أي ظرف من الظروف. لكن الساعة مرت وقمر مستيقظة ففقدت الأمل في إعطائها التطعيم. إلا أنه اتصل بي في الموبايل وأخبرني أن معه طوقاً وطلب منى أن أضعه حول عنقها وأمسكها جيداً لكى يعطيها الحقنة لأنها غالبا ما تكون «مدروخة» فاقتربت منها في حذر ووضعت الطوق حول عنقها، لكن ما أن فعلت ذلك حتى انتفضت وتراجعت إلى الخلف ثم جرت بعيداً وهى تصرخ وسرعان ما اختفت عن الأنظار. مر وقت طويل ولم

تظهر فانصرف عم صابر وصعدت أنا للمنزل في قمة الإحباط واليأس. وبعد حوالى ثلاث ساعات رأيتها في الحديقة المجاورة فنزلت إليها وكانت «مدروخة» فاقتربت منها وحاولت خلع الطوق من رقبتها فاستسلمت لى وسرعان ما راحت في سبات عميق!

(٨)

في صباح أحد الأيام وأنا أنظر من النافذة رأيت ثلاثة كلاب بيج ميتة بجوار صندوق القمامة. فانقبض قلبي ونزلت على الفور، بحثت فيهم عن قمر، كانت كل الكلاب الميتة بذيل، أما قمر فولدت بلا ذيل، فحمدت الله أنها لم تمت. وفجأة رأيت «ظريف» ممداً بينهم على جنبه الأيسر، وساقاه مفتوحتان فصدمت وبكيت, ثم جاء فتى مراهق ونظر إليهم وقال: أكيد تسمموا. وساعتها تذكرت ما قالته لى مدام جميلة - التي تطعمهم أيضا - إن الكلاب أثناء الليل ظلت تصرخ بشكل غير طبيعي وتصدر أصواتاً مؤلمة، وبعد أن هدأت أصواتهم اقتربت أم أحدهم منهم وأخذت تنتظر منه أن يفيق لكنه لم يفعل، ثم أخذت تعوى وظلت مقعية بجواره إلى أن جاء الصباح ففرق بينهما, عندما ألقى بهم أحد البوابين بجوار صندوق القمامة.

(٩)

انشغلت بموضوع «ظريف» وموته عن قمر التي أصبحت حاملاً الآن، ويبدو أنها ستلد قريباً، فقد أخذت تسير ببطء في الساحة ولا تستطيع الدخول تحت السيارات المنخفضة، اهتممت بطعامها وشرابها بعيدا عن بلبل الشرسة.

(١٠)

اليوم لم تظهر قمر.. انتظرت الساعة والدقيقة والثانية لكنها لم تظهر، فأدركت أنها ولدت وأخذت أبحث عنها بين الشجيرات التي تحيط بالجراج، وبالفعل رأيتها وهى ترضع أولادها ففرحت واقتربت منها وأخذت أمسح بيدي على رأسها وهى ترضع أولادها، ثم صعدت بسرعة للمنزل لكى أحضر لها طعاما، وما أن قدمته لها حتى انقضت بلبل وزامت على قمر وأخذت تأكل طعامها تاركة الطعام الذى كنت قدمته لها. ترددت في أن أمد يدى لأخذ طعام قمر منها خوفا من أن تعضني، لكن ربنا ستر وأخذت الطعام الذى لم يكد يتبقى منه شيء، أكلته قمر, وانصرفت وأنا أردد أدعية كل يوم: أن يحفظ الله قمر وأولادها من شر بلبل وشر «أولاد الحلال»!!

obeikandl.com

(١١)

ازداد كرهي لبلبل، فهي تأخذ مكان قمر وترقد بجوار الجراء وتمنع قمر من إرضاعهم، وتحاول أن ترضعهم بالقوة من أثدائها العجوز الخاوية، وإذا اقتربت قمر من أولادها فإنها تجثم فوقها وتخمش وجهها وتعضها وتنبح فيها. ومرة حاولت أن أبعد الجراء عن بلبل لكنها أسرعت وجثمت فوق قمر.

كما صرت أكره المكان الذى تنام فيه قمر وأولادها، فهو ملئ بالطوب والزلط وأعداد هائلة من النمل.

رأيتك ترتعدين من البرد يا قمر والمطر يهطل عليكم فصعدت بسرعة إلى المنزل وأحضرت ملاءة كبيرة ووضعتها فوقك أنت وجرائك. لكن بعد وقت قصير اضطررت إلى إبعادها عنكم لأننى سمعت بكاء أحد الصغار ولم أستطع تحديد مكانه، فنظرت: رأيته وقد التفت الملاءة حوله وكاد يختنق.

كنت أتخيل كثيراً أننى أحضرت قمر وأولادها وحتى بلبل ليعيشوا معنا في المنزل وأنى أحضرت لهم سجادة جديدة ناعمة فرشتها بجوار مدفأة تقيهم شر البرد . لكنها كلها أحلام يقظة لن تتحقق. ومن شدة حبى لقمر وأولادها لم أعد أرتدى ملابس ثقيلة، على الرغم من أننى أرتعش من البرد، تضامناً مع قمر وأولادها.

(١٢)

انتهيت من طهى طعام قمر وبلبل في الحادية عشرة صباحاً وأخذت زجاجة المياه والطبق البلاستيك ونزلت. كانت قمر تجلس بجوار إحدى السيارات فناديت عليها. أتت مهرولة كما كانت تفعل دائماً قبل الولادة. عادت كما كانت، باستثناء أن أثداءها كبرت وصارت تترجرج. وللمرة الأولى أقترب من أولادها: اثنان منهم لونهما أبيض وعليهما بقع صغيرة سوداء وأخران لونهما أبيض فقط، أما أثيري فهو الذى لونه بيج، ربما لأنه نفس لون قمر، وربما لأنه يظهر كثيراً. ولاحظت أيضاً أن عيونهم كلها مغمضة، وسمعتهم يصرخون لأنك تركتِهم يا قمر لتحضري إليّ، وجاءت معك بلبل وتناولتما الطعام.. وأخذت أقول لقمر اذهب ونامي بين أولادك، لكنها كانت مشغولة، فكل دقيقة تأخذ عظمة، تحملها في فمها وتذهب بها إلى حيث تحفر الأرض وتضعها ثم تهيل عليها التراب. أما بلبل فقد انتهت من طعامها بسرعة وذهبت وجلست بجوار الجراء. وقمر تحوم حولهم ولا تجرؤ على الاقتراب. وبعد عدة دورات تجاسرت قمر وجلست بجوارهم وانتظرت قليلا تريد أن ترضعهم، لكنها لم تفعل لرعبها من بلبل. فاقتربت منها وأخذت أهدهدها. وللمرة الأولى أرى الجروح التي في وجهها.. جرح كبير على أنفك وثلاثة بين عينيك، فتمنيت أن تموت بلبل، بسم أضعه لها أو أحضر شخصا ما ليقتلها ونتخلص من شرها.

(١٣)

في صباح أحد الأيام سمعت قمر تنبح بشدة. أخاف عند سماع نباحها, لأنه لم يتم تطعيمها وأرتعب من فكرة أن يعضها كلب مسعور فتصبح مسعورة هي الأخرى. نظرت من النافذة فرأيتها تقف على مقربة من أولادها وتنبح. نظرت إلى الجانب الآخر، حيث يوجد أولادها, فرأيت رجلاً واقفاً على سلم طويل يقلم أوراق الأشجار فنزلت مسرعة وطلبت منه أن ينتبه جيداً حتى لا تسقط الفروع والأغصان على تلك الجراء. وظللت واقفة بجواره فلم يسقط عليهم سوى ورقات قليلة. وسرعان ما أنهى الشجرة التي فوقهم وانتقل إلى الشجرة المجاورة وعادت قمر إلى أولادها، لكنني رأيتهم قد أصبحوا في العراء، فالشجر الذى كان يحميها هي وأولادها من الأمطار -وكانت أياماً مطيرة - ومن نظرات الفضوليين اختفى. وكأنني كنت في حاجة للمزيد من مشكلاتك يا قمر.

أصبحت فكرة الإمساك بشمسية لحمايتهم من الأمطار هي الحل الوحيد الآن. وبالفعل هطلت الأمطار, فأسرعت إلى المنزل وأحضرت الشمسية وفتحتها وظللت ممسكة بها لحمايتهم من المطر إلى أن توقف. ثم أخذت أقترب من الجراء في شوق لهم فرأيت كلبين ميتين، انقبض قلبي وأخذتهما بعيداً حيث قمت بدفنهما بالقرب من إحدى الأشجار. ثم عدت إلى قمر ورأيتها هي وباقي الجراء ينامون في أحد أحواض الزرع، أي في منطقة منخفضة عن باقي الأرض، وبالتالي فهي أسرع في الامتلاء بالماء ومن الممكن أن تغرق الجراء أثناء ري الأحواض الذى يقوم به البواب كل عدة أيام.. سألت نفسى:

مـاذا أفعـل؟ لـو كنـت أسـتطيع بنـاء كـوخ خشـبي لهـم ! لكنـى أعلـم أن السـكان سـيرفضون ذلـك حتـى ولـو لم تكـن لديهـم أسـباب وجيهـة، فمعظـم المصريـين والمسـلمين يكرهـون الـكلاب لأنهـم يتذكـرون نجاسـتها، ويتناسـون أن رجـلاً دخـل الجنـة لأنـه سـقى كلبـا في خفـه، وأن إحـدى بغايـا بنـى إسرائيـل فعلـت نفـس الـشيء، فغفـر اللـه لهـا وأدخلهـا الجنـة .

(١٤)

أصبـح موضـوع الطقـس يقلقنـي، خصوصـاً هطـول الأمطـار، وأخـيراً هـداني اللـه إلى فكـرة أن أفتـح كيـس قمامـة لونـه لبنـى فاتـح وأجعلـه شمسـية أشـبكها في أغصـان الأشـجار التـي تنـام تحتهـا قمـر وبلبـل والجـراء. وبالفعـل قمـت بفتـح ثلاثـة أكيـاس قمامـة ورشـقتها في أغصـان الشـجر الصغـير ثـم الشـجرة الكبـيرة فأصبحـت شمسـية مسـتطيلة.

وأثنـاء وقـوفي بجوارهـم أحسسـت بـشيء صغـير يحتـك ببنطلـوني، فنظـرت إلى أسـفل فرأيـت أحـد الجـراء وهـو البيـج الغامـق فنزلـت عـلى ركبتـي وأخـذت أربـت عليـه.. كان ينظـر إليّ، ونظـرت إلى وجهـه فرأيـت بـراءة الدنيـا في عينيـه، ثـم أخـذ يمـشى حتـى دخـل تحـت إحـدى السـيارات، في هـذه اللحظـة تملكنـي خـوف كبـير، لأن الجـراء أصبحـت تمـشى وتتحـرك ومـن الممكـن أن تدهسـها أي سـيارة تدخـل أو تخـرج في هـذا المـكان - الـذى هـو أصـلاً سـاحة لركـن السـيارات - دون أن يـرى سـائقها تلـك

المخلوقات الصغيرة. وتخيلت لو أن أحد هذه الجراء «مزقته» سيارة، فماذا سيكون حال قمر.. وحالي؟

(١٥)

يوماً بعد يوم بدأ أطفال قمر يكبرون.. «مستكة».. هو الاسم الذى أطلقته على تلك الجميلة التي كانت تتشمم بنطلوني، لونها بنى فاتح ويداها وقدماها وفوق أنفها إلى منتصف رأسها أبيض، لكن وجهها لا يمكن أن يكون إلا وجه ذكر، بعكس قمر الناعمة الرقيقة. وأحسست أن «مستكة» تحبني هي الأخرى، فكلما دخلت إلى الجراج الذى يعيشون فيه - وهو ليس جراجاً بالمعنى المتعارف عليه، بل هو مكان كبير خلف عمارتنا محاط بأسلاك قصيرة وأشجار قصيرة وبلا سقف – أشعر بالخوف من أن أذهب إليهم فأجدهم قد نقصوا واحداً. زوجي أطلق على الكلبة البيضاء اسم «سكر» أما «براون» فهو الكلب الأبيض الذى حول عينيه هالتان سوداوان وثلاث بقع سوداء على ظهره.

(١٦)

بالأمس رأيت ستة فلاحين يقفون أمام الجراج. كانت مستكة وسكر تلعبان أمام الباب، وأنحنى الفلاحون عليهما، ثم اقترب منهما أحدهم ومد يده لأخذ براون. فصرخت من النافذة بأعلى صوتي: سيبوا الكلاب! لم يسمعني في المرة الأولى لكنه سمع في المرة الثانية وابتعدوا.

في أحد الأيام رأيت صبيا يمسك بأحد الكلاب الصغيرة من قفاه ويرفعه إلى أعلى والكلب يصرخ، زعقت فيه فقال: أنا أطعمهم يا طنط، لم أستطع أن أرى جيداً مصداق ما يقول لأن سواد الليل غطى كل شيء لكنني أحسست أنه يكذب. فقد كان يحمل شنطة خلف ظهره، أحسست أنه يريد سرقة ذلك الكلب ووضعه في الشنطة فصرخت مرة أخرى وطلبت منه أن يترك الكلب فتركه وانصرف.

(١٧)

عند عودتي إلى المنزل أخبرني البواب أن أحد أولاد قمر دهسته سيارة جارة من الجيران، وأنها أخذته إلى الصيدلية وأخذ العلاج اللازم، فذهبت بسرعة إلى الجراج، فخرج من تحت إحدى السيارات الكلبان الأبيض وذو البقع السوداء، فرحت معتقدة أن أحدهما هو الذى كادت السيارة أن تدهسه وأنه في حالة جيدة، ثم انتظرت خروج «مستكة» فلم تخرج، فأدركت أنها هي التي خبطتها السيارة وأنها تتألم ولا

تستطيع الخروج. جلست على الأرض ونظرت أسفل السيارات فلم أر مستكة، ثم رن الموبايل فقمت بالرد، جاء صوت جارتي الطيبة مدام جميلة التي رأتني من الشرفة، وأخبرتني أنها أخذت مستكة إلى مستشفى الشعب، وهناك أجروا لها أشعة فاتضح أن قدميها الأماميتين كُسرتا، ولكن لأنها صغيرة فسوف تشفى بسرعة. ذهبت إليها لأرى مستكة فأحضرتها من داخل الشقة وفرحت بها جدا، لكنني لاحظت أن يديها متورمتين وحجمهما ثلاثة أضعاف قدميها الخلفيتين، فانزعجت، لكن مدام جميلة طمأنتني وأخبرتني أن الطبيب قال لها: يجب أن تبقيها عندك في الشقة حتى لا تتلوث جروح يديها .

(١٨)

بعد عدة أيام كنت أرقب أحفادي الكلاب من النافذة، فإذا بي أرى (حنان) ابنة مدام (جميلة) تأتي إلى الجراج وبجوارها مستكة تمشي على قدميها، ففرحت جدا وحمدت الله على شفائها وأخذت أدعو لمدام جميلة وأسرتها الجميلة على حسن رعايتهم لمستكة واهتمامهم بها، ثم رأيت «قمر» و«بلبل» تهرعان نحو مستكة التي سرعان ما اندمجت في اللعب مع «براون» و«سكر» في براءة وشقاوة وجمال.

(١٩)

بعد عودتي من زيارة مريض بالمستشفى - تلك الزيارات والواجبات الاجتماعية التي كادت أن تنعدم بسبب خوفي الشديد من ترك الكلاب وحدهم - ذهبت لإطعام أولادي فلم أر براون. قلت لنفسي إنه قد يكون نائماً تحت إحدى السيارات، فلم أجده تحت أي منها، ونفس الشيء لمستكة وسكر. توقفت قمر عن الأكل وبدت حزينة. في المصعد قابلت جارنا فقال إنه رأى طفلاً في حوالى العاشرة من عمره يلعب مع مستكة وبراون وسكر وأخبره أنه سيأخذ براون ليربيه في منزله. طلبت من جارى أن يصف لى منزل هذا الطفل فقال لى: سأنزل معك ونزل معنا ابنه أيضاً وذهبنا إلى المشروع السكنى القائم أمام منزلنا وأخذنا نبحث في الحدائق الصغيرة الموجودة بين العمارات - وهى ليست حدائق بالمعنى التقليدي، بل هي أشباح حدائق، فالشجر رمادي مهمل وفروعه ميتة مهجورة - فلم نجد شيئاً، وأخذنا نسأل الشباب الواقف عند ناصية إحدى العمارات عن طفل معه كلب، فكانوا يجيبون بالنفي، إلى أن قال لنا شابان إنهما شاهدا طفلاً معه كلب في العمارة المجاورة - أشارا إليها - فذهبنا لتلك العمارة، وطرقت الباب، فظهر لنا رجل في حوالى الستين من عمره وتحدث إلينا في تهذيب شديد قائلاً إن أولاده كبار وأنه لا يعرف شيئا عن موضوع الكلاب. وظللنا نبحث حوالى ساعة إلى أن رأينا مكوجى المنطقة فسألناه، فنادى على بواب عمارة مجاورة أخبرنا أن هناك طفلاً اسمه محمد يسكن في الطابق السابع وأن معه كلبا صغيرا، ثم تحدث البواب عبر

«الإنتركوم» فسمعت صوت طفل صغير سأله البواب: «إنت لسه عندك الكلب يا محمد؟» فقال الطفل: أيوه، فسأله البواب مرة أخرى: «إنت عايز تخليه عندك؟» فرد محمد قائلاً: «مش عارف». ثم طلبت منه أن أتحدث إلى والدته، سألتها إذا كانت ستحتفظ بالكلب فقالت: «لو محمد عايز يخليه يخليه»، ثم رجتني أن أصعد للتحدث معها.

بدت لطيفة وودودة. أخبرتها أن أم الكلب في حالة حزينة جداً بعد أن فقدت أولادها كلهم، ولكن إذا كان محمد سيتحمل المسئولية ويعتنى بالكلب، فأنا أرحب بذلك ، لأن الكلب سيعيش في بيت فيه حنان وأمان، وهذا بالطبع أفضل له من الشارع، والأمر الوحيد الذى يجعلني أريده هو أن أعيده إلى أمه. وفجأة ظهر براون ففرح قلبي كثيراً وهرعت إليه وحضنته وقبلته وقلت لأم محمد: أنا هسيبه عندكم يوم كمان لتقرروا القرار النهائي ثم أتصل بكم. وأخذت رقم تليفونهم.

(٢٠)

أمضيت الليلة أحلم بأن يعدل محمد عن رأيه ويعيد براون إلى قمر، وما أن جاء الصباح حتى أسرعت بفتح النافذة، فإذا بي أرى مستكة أمامي، لم أصدق عيني، ونزلت على الفور، فرأيت أمامي مدام جميلة، تقول لى إن ابنتها «حنان» سمعت مستكة تبكى في الحديقة المجاورة لمنزلهم في الساعة الرابعة

صباحاً، فنزلت وأخذتها إلى قمر، التي فرحت بها للغاية، وأخذت أقبل مستكة وأضمها إلى حضني وحمدت الله كثيرا ثم شكرت حنان بشدة.

وفى حوالى العاشرة والنصف مساء سمعت جرس الباب، فقمت وفتحته، فإذا بي أرى براون. وقال محمد - الذى كان يحمله - أن والدته بعد أن جمعت الغسيل النظيف ووضعته على السرير أخذ براون يلعب به وبعثره في أرجاء الشقة، فتضايقت منه ولم تعد تريده.

طلبت منه أن ينتظرني دقيقة حتى أرتدى ملابسي، ثم نزلت ووضعت براون وسط الجراج، وعلى الفور خرجت قمر من تحت إحدى السيارات وقبلته في فمه وأخذت تتمسح به. ثم جاءت مستكة وأخذا يلعبان وكأن شيئا لم يكن.

(٢١)

في الثامنة مساء نزلت لإطعام أولادي. وأثناء وجودي معهم جاءت جارتي مدام «جميلة» وابنتها «حنان» التي أخذت تحكى عن رجل عنفها بشدة عندما رآها تطعم الكلاب بحجة أنها تنبح على الرائحين والغاديين، وأنها «نجسة». فردت عليه: «دي مخلوقات ربنا خلقها ودى أرواح جائعة ولم يحدث أنها آذت شخصا أو هجمت على أحد، فلم يجبها وتركها وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

علا صراخ مستكة، فقد تألمت من يديها الكسيرتين عندما هجم عليها «براون» لكى يلعب معها، فقالت مدام «جميلة» أنها

obeikandl.com

ستعطيها المضاد الحيوي والكالسيوم. ولاحظت أن «مستكة» لا تستطيع أن تضع يديها على الأرض، وأنها معظم الوقت ترفعهما ثم تعود فتخفضها، فقررت أن أخذها إلى دكتور «بيرج». وأثناء خروجي من السيارة، وبينما كنت أحملها تبولت على بنطلوني، لكنني لم أهتم. وعندما جاء دوري ودخلت إلى دكتور «بيرج» - الذى أحمل له معزة واحتراما كبيرين في نفسى - حكيت له ما حدث فأعطاها ثلاث حقن وكتب لها كالسيوم. ثم حكى لى عن كلب كان عندهم وهو طفل، يوم وفاته ظل يزحف حتى وصل إلى أبيه ووضع رأسه على ركبة أبيه ومات. وأخبرني أنه تأثر بشدة هو وأسرته لموت هذا الكلب. ثم أخذ يربت على مستكة ورفض أن يأخذ ثمن الحقنة وقال: دعيني أشترك معك في الخير الذى تفعلينه. فارتفع قدره في نظري وشكرته .

وبعد عودتي نزلت لإطعام صغاري فلم أجد أيا منهم، فذهبت إلى الحديقة المجاورة لمنزل مدام جميلة ورأيتها هناك تطعمهم, أثناء ذلك أخذت تحكى لى عن كلبتهم «لاسى» التي كانوا يحبونها كثيراً ومرضت أثناء سفر ابنتها الصغرى «حنان» إلى ألمانيا، فأخذتها إلى طبيب بيطري معروف بالزمالك، وكشف عليها وقال لها إن الحالة متأخرة وميؤوس منها، أعطاها حقنة، وما أن أخذتها، حتى بدأت لاسى تصرخ وتعوى إلى أن وصلت إلى المنزل ثم ماتت. وقد عادت حبيبتها «حنان» لتوها، وكأن الله أبقى «لاسى» حتى تعود رحمة بكلتيهما، ثم أشارت مدام جميلة إلى إحدى الأشجار وقالت هنا تنام لاسى.. تحت هذه الشجرة. وأخبرتها

أنـا الأخـرى حكايتـي مـع ذلـك الطبيـب حـين كان د. بـيرج مسـافراً فاضطـررت لأن آخـذ إليـه كلبتـي وهنـاك رأيـت الكلـب الجريفـون البنـى الصغـير الـذى أرسـله أصحابـه مـع البـواب إلى ذلـك الطبيـب، ومـا أن اقـترب الكلـب مـن بـاب حجـرة الكشـف حتـى تراجـع إلى الخلـف في خـوف، لكـن البـواب حملـه ودخـل بـه ووضعـه عـلى ترابيـزة الكشـف وكل ثانيـة كنـت أسـمع صراخ الكلـب حـوالى عـشر صرخـات مؤلمـة متتاليـة، ثـم صمـت الصـوت تمامـا، وبعـد حـوالى عشريـن دقيقـة حملـه التمرجـي ووضعـه عـلى الأرض في الحجـرة التـي يجلـس فيهـا النـاس. نظـرت إليـه فرأيـت فمـه مليئـا بالدمـاء، وعندمـا سـألت البـواب عـن سـبب مـا حـدث، فقـال إن الطبيب-كـما طلـب منـه أصحـاب الكلـب - خلـع لـه أسـنانه كلهـا- وتذكـرت صرخاتـه فأدركـت أنـه خلعهـا بـدون بنـج - ثـم قـال لى إنـه أيضـا أجـرى عمليـة حتـى لا يتـزوج، فعرفـت أنهـا عمليـة اسـتئصال الخصيتـين- والتـي أخـذت عـشر دقائـق مـن الطبيـب الـذى أصبحـت أكرهـه أيضـا، وكرهـت أيضـا أصحـاب الكلـب الذيـن أجـروا لـه كل هـذه العمليـات مـرة واحـدة، ولأنهـم أيضـا لم يكلفـوا خاطرهـم بالحضـور مـع الكلـب، بـل تركـوه مـع البـواب.

(٢٢)

في يـوم آخـر وبينـما كنـت أطعـم قمـر وبلبـل ومسـتكة جـاءت مـدام جميلـة. في تلـك اللحظـة أحسسـت أنهـا تحبنـي كـما أحبها، وأنهـا فرحـت برؤيتـي كـما فرحـت برؤيتهـا، فهـي أم أولادي قمـر وبلبـل والجـراء وأنـا أيضـا أم أولادهـا. وكثـيرا مـا كنـت أقـول لهـا إننـي سـأحضر شـنطة ملابـسي و«لى لى» وأعيـش في بيتهـم، فتضحـك وتقـول لى: أهـلاً وسـهلاً.. إحنـا عندنـا أوضـة فاضيـة.

أخبرتنـي أن أولادا في العـمارة المجـاورة لعمارتهـا سرقـوا جـراء كلبـة بنيـة بعـد أن ضربوهـا بالطـوب إلى أن جـرت وتركـت أولادهـا، وأنهـم أخـذوا يلعبـون بالجـراء - التـي عمرهـا أيـام - في خشـونة, وأن «حنـان» «شـخطت» فيهـم واشـتكتهم لأبيهـم الـذى لم يفعـل شـيئا سـوى أن قـال لهـم: «حقـول للأسـتاذ في مدرسـتكم». ثـم أضافـت أن تلـك الجـراء موجـودة في بـدروم مظلـم ولا يوجـد مـن يطعمهـم. لذلـك فهـي تذهـب هـي وحنـان كل يـوم لإطعامهـم. وأخبرتنـي أيضـاً أن نفس هـؤلاء الأولاد أخـذوا «مسـتكة» وعلقوها بحبـل مـن رقبتهـا في شـجرة وضربوهـا بعصـا كانـت معهـم، لكنهـا نزلـت مسرعـة ومـا أن رآهـا هـؤلاء حتـى جـروا، وظلـت آثـار الحبـل عـلى رقبـة مسـتكة فـترة طويلـة.

أثنـاء حديثنـا مرقـت سـيارة تسـير بسرعـة جنونيـة فأحسسـت برعـب شـديد لأن قمـر وبلبـل ومسـتكة كثـيراً مـا يندفعـون خارج الجـراج إذا مـا رأوا غربـاء لينبحـوا عليهـم، وهـذا الاندفـاع المفاجئ

قـد تصادفـه أيـة سـيارة مندفعـة هـي الأخـرى وتدهسـهم كلهـم أو تدهـس أحدهـم.

بعـد كل ذلـك لم أعـد أهنـأ بالليـل ولا بالنهـار. منتظـرة في أي لحظـة أن أسـمع ذلـك العـواء الرهيـب.

(٢٣)

بعـد عـودتي مـن العمـل أخـبرني ابـن الجـيران أنـه رأى ثلاثـة أشرار صغـار يلفـون حبـلاً حـول رقبـة مسـتكة ويربطونهـا في عجلـة إحـدى السـيارات. وظلـوا يضربونهـا بالعصـا والطـوب، وقـال إنـه هـو ووالدتـه أخـذا يصيحـان فيهـم مـن الشرفـة دون جـدوى. فنزلـتُ مسرعـة وبحثـت عنهـا بـين وتحـت السـيارات، وبالفعـل رأيتهـا مخنوقـة بالحبـل في إطـار إحـدى السـيارات، وحمـدت اللـه أنهـا مازالـت عـلى قيـد الحيـاة، فلـو كانـت السـيارة تحركـت لفرمتهـا دون أن يـرى سـائقها أي شيء! حللـت وثاقهـا وربـت عليهـا وصعـدت للمنـزل وأحـضرت لهـا مـاء فشربـت ثـم أعطيتهـا الـ ٣سـم مـن «ديـكال ب ٢١» دواء الكالسـيوم الـذى كتبـه لهـا دكتـور بـيرج، ودهنـت يديهـا بالكريـم.

بعد كل هذا الرعب أصبحت أكره الخروج من المنزل.

(٢٤)

قررت اليوم أن أذهب إلى دكتور بيرج كي أطعم مستكة ولكى أحضر تطعيم قمر، وبالفعل أحضرت من عنده ٢ أمبول وحقنة بلاستيك وأخرى احتياطي وعدت إليها وأعددت لها الطعام ثم جلست قمر، واقتربت منها وأخرجت السرنجة وغرست الإبرة في غطاء إحدى الأمبولات وسحبتها فدخل السائل في الحقنة ثم أخذت الأمبول الثاني، فإذا به بودرة صفراء فلم أدر ماذا أفعل، وعلى أي أمبول أضعه، وقررت أن أعيد السائل الذى سبق وأن أفرغته في السرنجة إلى الأمبول ونسيت كل ما علمه لى د. بيرج وهو يطعم مستكة، وتركت قمر وأنا ألعن اليوم الذى أحببتها فيه.

عدت إلى د. بيرج وأحضرت تطعيمات أخرى وحقنة أخرى وسألته عن التفاصيل وكيفية وضع البودرة على السائل، وذهبت إلى قمر وأخرجت السرنجة وأمبول السعار ووضعت غطاء الإبرة على إحدى السيارات وكانت يداي ترتعشان بشدة فلم أستطع وضع الإبرة في الأمبول، لكنني حاولت أن أتمالك نفسى قدر المستطاع، وبصعوبة وضعتها وسحبت السائل واقتربت من قمر وأمسكت بجزء من جلد ظهرها ورفعته إلى أعلى وغرست الإبرة وضغطت على السرنجة إلى أن أفرغت السائل كله في ظهرها دون أن تتحرك. لكنها في النهاية وبعد أن أخرجت الإبرة التفت ونظرت إلىّ وكأنها تسألني: ماذا تفعلين في ظهري بالضبط؟ وبسرعة جهزت الحقنة

الأخرى التي ضد الأمراض وغرست الإبرة في الأمبول الذى به سائل أزرق وسحبتها ثم أدخلت الإبرة في الأمبول الممتلئ بالبودرة ثم «رجيت» الأمبول بعد أن وضعتها على بعض ثم سحبت السائل بالسرنجة واقتربت منها بعد أن وضعتهما على بعض ثم سحبت السائل بالسرنجة ورفعت جلدها وغرست الإبرة فيه وحرصت ألا تخترق الإبرة الناحية الأخرى حيث اللحم. أفرغت السائل كله وحمدت الله وتشاهدت بصوت مسموع وظلت يداي ترتعشان فترة طويلة.

(٢٥)

في اليوم التالي كنت كالعادة في الجراج لإطعام أولادي، لكنني لم أر بلبل. ذهبت إلى جراج العمارة المجاورة للبحث عنها، فوجدتها تجلس تحت سيارة والبواب يقول لى: إنها لا تتحرك لأنها مريضة، اقتربت منها ووضعت لها الطعام والشراب فلم تقرب أيا منهما. كان نصفها الأسفل تحت تلك السيارة فخشيت إذا ما تحركت السيارة - وهى لا تستطيع الوقوف على قدميها - أن تدهسها، حاولت أن أحملها فلم أستطع، فاتصلت «بعمر» ابنى الذى جاء بسرعة وحملها إلى الرصيف، فاستلقت بلا حراك, ثم أحضر لها ماء فشربته، ثم لبنا فشربت معظمه، وظللنا نراقبها، حتى بدأت تتقيأ. وكان الضوء ضعيفاً فلم أعرف إذا كانت تتقيأ دماً أم قيئا عادياً،

obeikandl.com

ثـم حاولـت أن تقـف لكنهـا لم تسـتطع ومـرة أخـرى حاولـت فوقفـت لمـدة أقـل مـن الثانيـة، لكنهـا سرعـان مـا تهـاوت عـلى الرصيـف.

كانـت هنـاك سـيارة كبـيرة تركـن، وكانـت راقـدة عنـد مقدمتهـا، وجـاء صاحبهـا فطلبـت منـه ألا يقـود السـيارة ولا يتحـرك بهـا حتـى نحمـل بلبـل بعيـداً، لكنـه أخـبرني أنـه سـيعود إلى الخلـف، وأثنـاء ذلـك ارتجفـت بلبـل وأحسسـت برعـب عليهـا لأن بينهـا وبـين الطريـق المـليء بالسـيارات مـتراً واحـداً، فطلبـت مـن عمـر وبـواب العـمارة المجـاورة أن نضعهـا عـلى شـوال لـكى نسـتطيع حملهـا ونضعهـا تحـت إحـدى الأشـجار في جـراج عمارتنـا، لعـل حالتهـا تتحسـن عندمـا ترقـد في مكانهـا القديـم.

وبالفعـل أرقدناهـا، وجـاءت قمـر ومسـتكة فجلسـتا بجوارهـا، وجلسـت أنـا الأخـرى أربـت عليهـا وأسـترجع ذكريـاتي معهـا وشراسـتها مـع قمـر ومـع الـكلاب الأخـرى، لدرجـة أن أحدهـم عضهـا في ظهرهـا عضتـين كبيرتـين، وكانـت تهـرب منـى كلـما رششـت عليهـا المضـاد الحيـوي الـذى وصفـه لهـا الطبيـب، وكنـت أدعـو اللـه أن يلتئـم الجـرح وألا يتلـوث.. والآن أيـن ذهـب كل هـذا؟ لم تعـد تسـتطيع أن تقـف عـلى قدميهـا. وأحسسـت أن هـذه سـتكون ليلتهـا الأخـيرة .

(٢٦)

في الصباح رأيت بلبل راقدة في نفس المكان, وعلى نفس الجانب الذى أنمتها عليه أمس. كانت قمر ومستكة تحدقان فيها في حزن. اقتربت منها، لم تكن تتنفس، للموت رهبته وجلاله وقدسيته حتى في الكلاب.

وقمنا أنا وعمر والبواب بدفنها في حديقة مجاورة. كانت تلك هي نومتها الأولى والأخيرة على شوال ملمسه ناعم وليس على الأرض الخشنة.

(٢٧)

لدى رغبة شديدة في كتابة هذه القصة، التي لا أعرف إذا كانت سترى النور أم أن البرج الوحيد الباقي في عقلي سيطير قبل أن أجد السكينة لأمسك القلم . وجدتني أكتب هذه الكلمات في رأسي وأنادى الورقة والقلم، لكن الكتابة تحولت إلى حلم وردى جميل، شأنها شأن كل الأحلام البسيطة، كالاستلقاء في الفراش وتناول الطعام وأحيانا حتى الذهاب إلى الحمام، ليس فقط للاستحمام وإنما لقضاء الحاجة. والسبب الرعب الذى أصبحت أعيش فيه، فمستكة لا تكف عن النباح.

نباحها ازداد الآن، أرى من النافذة كلباً أسود مخيفاً يقترب من قمر, أحضرت كل الطماطم من درج الثلاجة وألقيت

عليه حبة طماطم، فابتعد ثم فوجئت به يقترب منها من ناحية أخرى فألقيت عليه حبة طماطم أخرى فهرب. لكنني اكتشفت أن الطماطم التي معي أوشكت على النفاد. فطلبت من زوجي أن ينزل ويشترى ٤ كيلو طماطم، فنزل واشتراها لى، وقسمتها على قسمين، قسم في حجرة عمر، حيث الشباك الذى أطل منه على الساحة، وقسم في الصالة حيث شباك آخر في نفس مجال الرؤية، وقفت أنظر من تلك النافذة طويلاً حتى أحسست بالجوع, فأكلت حبتين على سور النافذة وأنا أراقب قمر ومستكة. رأيت ثلاثة من تلك الكلاب رابضة في الساحة ثم صعد أحدها وجلس فوق إحدى السيارات المركونة ونام عليها.

على الناحية الأخرى رأيت طفلاً وأمه وأباه يمشون في اتجاه سيارتهم وكان الطفل يضرب الأرض بكرة فتصطدم بها ثم ترتد إليه. وفجأة رأيت أحد تلك الكلاب يجرى ناحيته وينبح عليه بشدة، ففزع الطفل وتراجع إلى الخلف فحضنه أبوه وأمه ثم ركبوا جميعاً السيارة. وظللت أنا في النافذة أرقب ما يحدث في حزن.

كان قد مضى على وقوفي حوالى الساعة وأنا في حالة انتباه واستعداد تام لإلقاء الطماطم إذا ما اقتربت الكلاب من قمر ومستكة. تعبت فجلست على أحد الكراسي. لكن بعد دقيقة واحدة سمعت نباح مستكة, فقمت إلى النافذة ورأيت حوالى عشرة كلاب يقتربون من قمر ومستكة، وقام أربعة منهم باغتصاب قمر في مكان أبعد من أن تصل إليه الطماطم، ومع ذلك أخذت أمطرهم بوابل من الطماطم إلى أن خرجوا من

الجـراج. ومـا أن بـدأت أشـعر بـشيء مـن الارتيـاح حتـى رأيـت زوجـي أمامـي غاضبـاً وهـو يقـول: «إنتى مـش هتقـدري تتحكمي في الكـون، والـكلاب دي لـو كنـا نقـدر نجيبهـم عندنـا في البيـت كنـت عملـت كـده. لكـن «لى لى» لـن تسـتطيع العيـش معهـم، أنا مـش قلـت لـك مـن الأول مـا ترتبطيـش بيهـم عاطفيـاً.. كل الـلي انـت بتعمليـه مفيـش منـه فايـدة.. مـش هينفـع تقـضى الأربـع والعشريـن سـاعة في الشـباك تحرسـيهم.. هتعمـلى إيـه لـو رحتـي الشـغل؟ كان غاضبـاً، فحاولـت أن أهدئـه، لكـن بـلا جـدوى.

(٢٨)

عنـد نـزولي اليـوم التـالي للعمل، سـألتني زوجـة البـواب: «حضرتك تعـرفي مـين الـلي بيرمـى الطماطـم عـلى الجـراج؟» فسـألتها: ليـه؟ فأجابتنـي: أصـل الطماطـم كـسرت سـقف عربية الأسـتاذ محسـن، فسـألتها: محسـن مـين؟ قالـت: الـلي سـاكن فوقكـم.

عـلى الفـور تذكرتـه.. ذلـك الرجـل الطيـب وزوجتـه الـودود. انزعجـت بشـدة، وطلبـت منهـا أن تذهـب لترينـي ذلـك السـقف المهشـم، سـيارته فولكـس فاجـن باسـات، أحـدث موديـل، وتبـدو جديـدة تمامـاً، باسـتثناء السـقف الزجاجـي، الـذى تهشـم جـزء كبـير منـه. ازددت انزعاجـا لدرجـة أننـي لم أبـال بمسـتكة التـي أخـذت تحتـك بسـاقي. وسـألت زوجـة البـواب إذا كان الأسـتاذ محسـن موجـوداً الآن، فأخبرتنـي أنـه خـرج مـع زوجتـه منـذ دقائـق بسـيارته الأخـرى، فصعـدت إلى الشـقة مهمومـة وفى نيتـي

الذهاب إليه للاعتذار له والتصميم على دفع ثمن كل تلك الإصلاحات مهما تكلفت، لأنني يجب أن أتحمل ثمن غلطتي، على الرغم من أنني حاولت كثيراً أن أتفادى أي سيارة أثناء إلقاء الطماطم.

وبمجرد عودتي من عملي ذهبت إلى شقة الأستاذ محسن وحاولت أن أشرح له المأساة التي أعيشها واعتذرت له على ذلك الخطأ غير المقصود فتغير وجهه، وحين أخبرته أنني مصرة على دفع كل تكاليف السيارة قال: إنه لا يعرف قيمة المبلغ المطلوب بالضبط، فطلبت منه أن يعلمني على الفور وكررت اعتذاري وانصرفت.

(٢٩)

في اليوم التالي أخبرني الأستاذ محسن إنه ذهب إلى التوكيل فقالوا له: إنها ستتكلف حوالى خمسة آلاف وستمائة جنيه، وقع قلبي على الأرض لكنني حاولت أن أتماسك ثم أضاف أنه ذهب أيضا إلى الحرفيين وسأل فقالوا له إن التكلفة ستكون حوالى ثلاثة آلاف وستمائة جنيه فوعدته بإحضار المبلغ وانصرفت.

(٣٠)

لابـد أن أقتـل تلـك الـكلاب الشرسـة! أردت أن أعـرف إذا كان هـذا حـلالاً أم حرامـاً، فاتصلـت بأحـد الشـيوخ وشرحـت لـه المشـكلة وأخطارهـا وأبعادهـا، فقـال لى: مادامـت الـكلاب مؤذيـة وليسـت للحراسـة فيجـوز التخلـص منهـا، لكننـي لم أرتـح لهـذه الفتـوى. اتصلـت بمـدام (جميلـة) وأخبرتهـا بمـا حـدث فقالـت لى: «وتأخـذي ذنبهـم ليـه.. دي فـترة وهتعـدى.. ثـم أضافـت قائلـة: مـا تاخديـش وزرهـم. ارتحـت لمـا قالـت وتذكـرت قـول الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم مـا معنـاه أنـه لا يجـوز القتـل إلا للكلـب المسـعور، وقولـه أيضـا: اسـتفت قلبـك وإن أفتـاك النـاس.. وهـذه الـكلاب غـير سـعرانة، بدليـل أنـه عندمـا أنـزل إليهـم وأهشـهم يبتعـدون عـلى الفـور.

(٣١)

لم أعـد أملـك رفاهيـة تغيـير ملابـس الخـروج، فبعـد أن كنـت أسـارع بارتـداء البيجامـا القطنيـة الناعمـة بعـد خشـونة البنطلـون الجينـز، مضطـرة الآن أن أظـل مرتديـة ملابـس الخـروج والحـذاء الكاوتـش, تحسـبا لأى مصيبـة تحـدث لقمـر أو مسـتكة. حتـى برامـج التليفزيـون المفضلـة عنـدي في قنـاة الجزيـرة والجزيـرة الوثائقيـة لا أملـك الوقـت ولا راحـة البـال لأشـاهد شـيئاً منهـا، حتـى شراء أشـيائي الخاصـة صـار حلـما عزيـز المنـال, فمعظـم

شراباتي القطنية البيضاء «داب أستكها» ومعظمها مهترئ وأحيانا أرتدى فردة وفردة.. أصبح الرعب يشلني, وأصبحت كل ألوان حياتي بين درجات اللون الأسود.. واللون الرمادي.. الله يخرب بيتك يا قمر وبيت اليوم اللي حبيت فيه الكلاب.. على الطلاق بالثلاثة من رشدي أباظة لو شفت كلب في شارع هسيبه وأمشى في شارع تاني.

(٣٢)

لستر ربنا كنت قد قبضت جمعية بثلاثة آلاف جنيه واستدنت الستمائة الأخرى وصعدت للأستاذ محسن في الموعد المحدد بالضبط وأعطيتها إياه وشكرته على تفهمه وكرم أخلاقه.

وكانت مدام جميلة - بعد أن عرفت حكاية الأستاذ محسن - قد أصرت على أن تقرضني الثلاثة آلاف جنيه.. وألحت علىّ وأحسست بصدقها وشهامتها، لكنني رفضت شاكرة فقالت لى: ياريت تبطلي تأكلي قمر ومستكة وأنا هحط لهم أكل ، لأنهم أي حاجة هتحصل في الجراج هيقولوا إنت وكلابك السبب.

(٣٣)

لم أعمل بنصيحتها.

في مساء اليوم التالي تقابلنا أنا ومدام جميلة في الجراج لنطعم قمر ومستكة، فإذا برجل وزوجته وابنه يتوقفون أمامنا ويقول الرجل: «اتفضلى حضرتك أكليهم كده لغاية لما يهجموا على حد».

قلت له:

- إنت عمرك شفتهم بيهجموا على حد.. أقصى حاجة بيعملوها هي الهوهوة.

- لو طفل معدى هيهجموا عليه.

- مش ممكن.. دول بيخافوا بالذات من الأطفال، لأنهم على طول بيرموا عليهم طوب، وما تقلقش حضرتك لأنهم متطعمين هما الاثنين.

- حضرتك بتأكليهم ليه.. ده فيه ناس فقرا جداً عند الترب.

- هو عشان أنا بأكل الكلاب يبقى معنى كده إني مش بادى الفقرا، مش لازم أعلنها في الجرايد لأن ده شيء لوجه الله.

فتدخل ابنه - وهو في حوالى الحادية عشر - قائلاً:

- برضه ما تأكليهمش

obeikandl.com

غضبت، لكنني تمالكت نفسي وقلت له:

- تعرف إن فيه واحد دخل الجنة علشان شرّب كلب عطشان؟ دول ولادي وبحبهم.. ليه بس بتفتكروا إن الكلاب نجسة وتنسوا رحمة ربنا اللي حطها في قلوبنا؟

رد الولد بنفس الوقاحة:

- برضه ما تأكليهمش.

فغضبت وقلت له:

- لما الكبار يتكلموا الصغيرين يسكتوا!

فأجاب بسخرية واستهزاء:

- هو إنت كبيرة؟!!

(٣٤)

عندما يأتي الليل أتحلل تماماً. أتذكر قمر ومستكة تحت رحمة الليل.. فيتحلل وجهي إلى عشرات المدن الغارقة ويتحلل جسدي إلى آلاف الموتى، وترحل روحي بعيداً فلا أستطيع اللحاق بها أو حتى توديعها، يتهاوى كل شيء فأجدني أهوى إلى بئر عميقة بلا ماء ولا قاع.

obeikandl.com

(٣٥)

في حوالى الخامسة بعد الظهر وأنا مع قمر اقترب منى رجل يبدو عليه أنه هربان من مستشفى الأمراض العقلية وأخذ يتجه ناحيتي بخطى بطيئة وهو يحدق في وعلى وجهه ابتسامة بلهاء، وكأنه قادم لاغتصابي في هذا المكان النائي الذى أقف فيه، فخفت وأردت أن أصرخ فلم يخرج صوتي، وظل متجها ناحيتي، وفجأة نبحت قمر عليهَ واقتربت منه عدة خطوات، فسرعان ما اتجه لطريق آخر فحمدت الله وأخذت أربت عليها وأقبل رأسها.

(٣٦)

يبدو أنني قمت بحركة خاطئة، كأن قبضة حديدية حطمت عمودي الفقري وسكنت في أسفله، لم أعد أستطيع الحركة أو حتى القيام من المقعد إلا بعناء وعذاب وصراخ. وبالطبع لم أستطع أن أطعم قمر ومستكة لأنني لم أعد أستطيع الانحناء لوضع الطعام لهما، ناهيك عن بذل مجهود لإبعاد قمر عن مستكة. فقررت الاتصال بمدام جميلة حتى تتولى إطعامهما صباحا ومساءً..

سمعت جرس الباب وإذا بي أراها أمامي، ففرحت بها، لكنني رأيت وجهها مقطباً وحزيناً، وقبل أن أقول لها تفضلي قالت:

- مستكة سموها وماتت.

- يمكن عيانة.. يمكن نايمة.

- لا، دي متخشبة. أنا مستنياكى تحت علشان ندفنها.

(٣٧)

ارتديت ملابسي بصعوبة شديدة وبصرخات ألم. ونزلت فرأيت مستكة. اقتربت منها وأنا أبكى، وطلبت من البواب دفنها. كان قلبي مع قمر. التي - ولأول مرة - لم تنبح على البواب ولا على أحد، بل أخذت ترقبه بعينين حزينتين وهو يأخذ ابنتها بعيداً.. تركتها لكى أذهب معه. في الحديقة الجرداء المجاورة، حفر حفرة صغيرة بجوار قبر بلبل. وتساءلت: هل تعرف بلبل أن حفيدتها التي عمرها أقل من أربعة أشهر ماتت وستدفن إلى جوارها؟ بينما كنا نسير اقترب منا شاب وقال: البقية في حياتكم.. فرددت عليه: إنت بتتريق حضرتك. فقال: لا والله وأنا أعلم أنه كاذب .

(٣٨)

عندما صعدت للمنزل تذكرت أنني لم أصور مستكة أبداً، وتضايقت كيف لم أفعل وأنا التي تعيش في حالة رعب شديد من فقدان من تحب، هل هو استسلام لأنها ستموت في أي

لحظة، وفي النهاية تتساوى الصورة بالفقدان؟ ما الذي جعلني أنسى أن الصورة وحدها خالدة، وأن البشر يموتون.

(٣٩)

أذن المغرب.. فأخذت أدعو لمستكة بالرحمة، وتمنيت لو أراها في الجنة مع كل الكلاب الذين أحببتهم، وتساءلت هل تدخل الكلاب الجنة؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: «لكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون» صدق الله العظيم؟ ألم يخلق الله نهراً من الخمر في الجنة؟ أليس سبحانه وتعالى قادراً على ذلك بكلمة: «كن فيكون» أتمنى أن أسأل أحد الشيوخ ويكون حنونا ومتفهما حتى لا يرد عليَّ بفظاظة أو ينهرني، أو يعتقد أنني أمزح.. وتذكرت امرأة قابلتها في عيادة د. بيرج قالت إنها اتصلت بأحد الشيوخ لتستفسر منه عن شيء معين خاص بالكلاب، وما أن سمع كلمة كلاب حتى أغلق السماعة في وجهها، لكن لا أحد يستطيع أن يمنعني من أن أتعشم خيراً في وجه الله الكريم، ولا أحد يستطيع أن يحيط برحمته الواسعة.

أخبرتني مدام جميلة أنها في العام الماضي كانت هناك كلاب تعيش بالحديقة التي بجوار منزلها، وكانت تطعمهم، وذات ليلة رأت ثلاثة شبان يخرجون من سيارتهم يرتدون قفازات ويلقون بطعام - اتضح فيما بعد أنه مسموم - للكلاب، وانصرفوا مسرعين، فهرعت حنان ونبيلة وأخذتا تجمعان هذا

الطعام من الحديقة حتى لا يتسمم الكلاب، وفى اليوم التالي استطاع هؤلاء أو آخرون أن يسموا كلبة كانت قد أنجبت سبعة جراء في اليوم السابق، وظلت الجراء السبع ثلاثة أيام بدون رضاعة، فأخذتهم حنان إلى كلبة أخرى رأتها ترضع جراءها تحت إحدى السيارات ووضعتهم عندها، فأخذت الكلبة ترضعهم وهى ترضع أولادها معهم، وبعد يومين رأت هذه الكلبة وكل الجراء الخمسة عشر مسمومين.

ثم أخبرتني أيضاً عن جارة لها وضعت السم في طعام لكلاب في الساحة وكانت الكلاب صغيرة، وما أن تأكل من الطعام حتى تسقط على الفور ميتة. وماتت كل الكلاب باستثناء أحدهم ولم تتركه أيضاً وإنما طلبت من أبناء البواب حمله ووضعه في سيارتها وأخذته بعيدا حتى تتخلص من كل تلك الكلاب.

(٤٠)

قمر أصبحت وحيدة تماماً في هذه الدنيا. وفى الساحة أنزل إليها، أقترب منها، رأسها منكس، عيناها حزينتان، شاردتان، وما أن أربت عليها حتى ترتمى على الأرض، أضع يدى تحت خدها وأمسح على خدها الآخر بيدي اليسرى، تقوم لتجلس في نفس المكان الذى ماتت فيه مستكة، وأتساءل: ما الذى فعلته مستكة لكى تقتل بهذه الوحشية؟ كانت ودودة مع كل الناس، كلما رأت أحداً تقترب منه وهى تهز ذيلها، وإذا

حـدث وربـت أحـد عليهـا تتهـاوى عـلى الأرض وترفـع عينيهـا لـه بـكل الـود والحـب والحنـان، كانـت تفعـل ذلـك معـي ومـع عمـر، لدرجـة أنهـا كانـت تتبـول عندمـا أربـت عليهـا وتقـع حبـاً عـلى الأرض.. كنـت أخـشى أن يكـون عندهـا سـلس بـولي، فسـألت دكتـور بـيرج فضحـك وقـال: لا لا، هـذا مـن الفرحـة.

(٤١)

في طريقـي إلى العمـل سـمعت جارنـا الفكهـاني الـذى أمامنـا ينـادى يـا عمـر.. يـا عمـر.. ورغـم أننـي كنـت في حالـة نفسـية سـيئة بسـبب مـوت مسـتكة إلا أننـي ذهبـت إليـه فقـال لى: أنـا بنـادى عليـكى علشـان أعزيـكى.. شـفتك إمبـارح بتعيطـي، فأخبرتـه أن كلبتـي ماتـت، فقـال: ده أمـر اللـه. قـال ذلـك وأنـا أعلـم أنـه لا يمـزح ولا يسـخر، فهـذه ليسـت المـرة الأولى التـي أعـرف فيهـا شـهامته، ففـي أحـد الأيـام وبعـد عودتنـا بأمـي مـن المستشـفى كنـا نحملهـا أنـا وزوجـي والبـواب وزوجتـه وكادت تقـع مـن عـلى الكـرسي المتحـرك، فصرخـت وفوجئـت بـه يـأتي مسرعـاً ويحمـل أمـي عـلى كتفـه ويصعـد بهـا إلى الشـقة ويضعهـا في فراشـها، ومنذ ذلـك الحـين ولـه معـزة كبـيرة في قلبـي وإحسـاسي بالجميـل لا ينتهـى، وازدادت عندمـا عـزاني في مـوت مسـتكة، لكننـي فوجئـت بسـيدة محجبـة واقفـة في المحـل تتدخـل في الحديـث وتقـول لـه: في كل الأحـوال الحمـد للـه إن الكلـب مـات.

- ليه؟

- مفيش حاجة في الشرع تخلى الواحد يربى كلب في بيته.

- دي ماكانتش في البيت، كانت في الشارع، ودى كانت بنتي.

- مش البنى آدمين بيموتوا.

- بس مش بتقولي الحمد لله إن فلان أو فلانة ماتت.

(٤٢)

في ظهر أحد الأيام رأيت مدام «جميلة» و«حنان» مع قمر في الساحة، ووقفنا ننظر نحن الثلاثة إلى قمر، ونتساءل هل ولدت أم أنها مازالت حامل؟ ووضعت «حنان» يدها على بطنها، وقالت إنها تعتقد أنها مازالت حاملاً، لكنني رجحت أن تكون قد ولدت لأن أثداءها كبرت.

وفى اليوم التالي عندما نزلت إليها كانت تصوصو من شدة الألم، ورقدت تحت إحدى السيارات، وأخذت تحفر الأرض بيديها ثم تهوى إلى الأرض وهى تبكى من شدة الألم فعرفت أنها ستلد قريباً جداً، لأنها فعلت نفس الشيء في المرة السابقة. ونزلت عدة مرات للاطمئنان عليها، وعلى الرغم من إرهاقي وعطشى بسبب صيام رمضان.

وجاء موعد الإفطار فأفطرت وكانت الدنيا قد أظلمت فازداد خوفي على قمر، واتصلت بجارتنا مدام «جميلة» وسألتها إذا

obeikandi.com

كنا سنحتاج أن نأخذ قمر إلى دكتور بيرج لأن الولادة متعسرة، فقالت: «لا تخافي، اعتمدي على الله، وحنان معها دلوقتى»، فأخذت أدعو لها وأحسست برحمة وحنان ربنا الذى يشمل كل مخلوقاته حتى كلبة الشارع التي ليس لها سواه.

بعد قليل اتصلت بي مدام «جميلة» وأخبرتني أن «حنان» قالت لها : إن قمر ولدت أربعة جراء، فحمدت الله ونزلت على الفور ورأيتها نائمة وبجوارها أطفالها.

(٤٣)

في صباح اليوم التالي نزلت لقمر فرأيتها نائمة تحت إحدى السيارات وجروان يرضعان منها وآخران ميتان، فحزنت لموتهما وحملتهما بعيداً عنها تمهيداً لدفنهما، فقامت قمر تصوصو وتنظر إليهما، وأمسكت أحدهما بفمها من رأسه وأرجعته إلى الحفرة التي تجلس بها، فتركته لها، وأخذت أطعمها بيدي في فمها، وأحسست بسعادة كبيرة وأنا أفعل ذلك، ثم أحسست أنها عطشى فقربت منها الماء فشربت كثيراً، وحمدت الله على فضله وكرمه.

(٤٤)

في اليوم التالي مات ابنها الثالث، وقمنا أنا وحنان بدفنهم جميعاً. تساءلت عن السبب، وعرفته عندما نظرت إلى حلمات أثدائها: وجدتها كبيرة بشكل غير طبيعي، فعرفت سبب

موت الجراء الثلاثة: لأن فمهم أصغر بكثير من تلك الحلمات، أي أنهم ماتوا من الجوع. اقتربت من قمر وأخذت أمسح رأسها، وكنت أشعر بقربي من الله. وقلت لها: أشكى همك لربنا.. ربنا أبو كل المخلوقات.. وهو حنين وكريم ومتفهم.. ربنا يعوضك في الجنة يا قمر.

الجرو الوحيد الباقي كان في حالة ضعف شديدة، فقررت الاتصال بدكتور بيرج لسؤاله عما يجب فعله، وعن نوع اللبن الذى ينصحني به، فوصفه لى، وأسرعت إلى الصيدلية لشراء اللبن والسرنجات البلاستيك التي سنطعم من خلالها الجرو، وأثناء عودتي قابلت مدام جميلة وأخبرتني أنها ستأخذ الجرو المتبقي عندها لترضعه حتى لا يموت، لأنها لا تستطيع أن تنزل ثماني مرات في اليوم ولا تقدر على الركوع لآلام تصيبها في ظهرها وركبتيها، وما أن حملت الجرو حتى أخذت قمر تصوصو وتجرى خلفها.

(٤٥)

في العصر اتصلت بمدام جميلة للاطمئنان على «حفيدي» ابن قمر فأخبرتني أنه يرضع قليلا من البيبرونة التي اشترتها له «حنان» من الصيدلية، لكنه لا يرضع كل المكيال الذى نصح به الدكتور بيرج، إلا أنه مازال على قيد الحياة، وأخبرتني أنها عملت بنصيحتي وجعلت «حنان» تأخذه إلى قمر التي ما أن رأته حتى جنت ووقفت على ساقى «حنان» بيديها وأخذت

تبكى وتصوصو وأرادت أن تخطفه بفمها وتهرب بعيداً، لكن حنان قالت لها: أنا وعدتك أنى هجيبه لك يا قمر، بس سيبيه دلوقتى، ح ارجعه ليكى، ماتخافيش، ويبدو أنها فهمت كلام «حنان» لكنها ظلت تبكى وتبعتها إلى مدخل منزلها، وعندما نزلت «حنان» مرة أخرى اعتقدت قمر أن ابنها معها فأخذت تجرى وراء السيارة.

(٤٦)

في اليوم التالي وفى حوالى التاسعة والنصف صباحاً اتصلت بي مدام جميلة. كان صوتها حزينًاً. أخبرتني أنها لم تنم منذ الأمس بسبب ابن قمر، لأنه لم يرضع أي نقطة لبن، وتصدر عنه أصوات تشبه بكاء البشر الرضع، وطلبت منى الاتصال بدكتور بيرج، فقال: اعطيه ماء بسكر وطلب أن يراه في العيادة، واتفقت معها على أن نذهب إلى عيادته في المساء.

(٤٧)

بعد حوالى أقل من ساعة سمعت طرقاً على الباب. كانت زوجة البواب. أخبرتني أن مدام جميلة في انتظاري في مدخل العمارة، حين نزلت إليها قالت مدام جميلة إنها لم تستطع الانتظار حتى المساء وأنها أخذت ابن قمر مع ابنتها «نبيلة» إلى مستشفى الشعب، وأن الدكتور هناك علق له محلول

جلوكـوز وأخبرهـا أن الكلـب ضعيـف، وتعجـب مـن أن عمـره خمسـة عـشر يومـا، ولم يفتـح عينيـه بعـد.. وطلـب منهـا إعطـاءه محلـول معالجـة الجفـاف، لكنـه أكـد ضرورة أن يرضـع مـن أمـه.

ثـم أخذنـا نبحـث نحـن الثلاثـة عـن قمـر، فرأتهـا «نبيلـة» - أخت حنـان الكـبرى وهـى طبيبـة لم أر أرق ولا أنعـم ولا أعـذب منهـا - تحـت سـيارة مغطـاة أمـام منزلهـما، فنـادت عليهـا لـكى تخـرج فلـم تخـرج، فقربـت منهـا ابنهـا الرضيـع، ومـا أن شـمت رائحتـه حتـى خرجـت عـلى الفـور، وأخـذت تبـكى، وتصوصـو وتلـف حـول نبيلـة وتجـرى خلفهـا، ثـم ذهبنـا بهـا إلى نفـس المـكان الـذى ولـدت فيـه ووضعـت نبيلـة الجـرو عـلى أحـد أثـداء قمـر لـكى يرضـع فلـم يرضـع، ففتحـت فمـه وأدخلـت فيـه الحلمـة، لكنهـا كانـت كبـيرة جـداً عـلى فمـه، فأخـذت نبيلـة تضغـط برفـق عـلى الحلمـة لـكى ينـزل منهـا اللـبن، لكـن الرضيـع لم يتحـرك وبدا أشـبه بقطعـة قـماش باليـة . فتذكـرت محلـول الجفـاف، وذهبـت بـه في الصبـاح إلى منـزل مـدام جميلـة التـي قالـت لى إن ابـن قمـر بـدأ يتعـب، وأنـه منـذ الواحـدة والنصـف بعـد منتصـف ليلـة أمـس ظـل يـصرخ كل دقيقـة ويفتـح فمـه.. وطـوال الليـل وهـو هكـذا. تأثـرت بشـدة لحنانهـا معـه حيـث إنهـا لفتـه في قطعـة قـماش طريـة وناعمـة ونظيفـة ووضعتـه عـلى صدرهـا كأنهـا رضيعهـا. وحاولـت إرضاعـه بالبيبرونـة، لكنـه لم يرضـع شـيئاً ونـزل اللـبن مـن جانـب فمـه.

(٤٨)

تركت منزل مدام جميلة وذهبت إلى قمر، شعرت برغبة شديدة في أن أحضنها. ناديت عليها فخرجت من تحت السيارة، وجلست بين سيارتين، ركعت وأخذت رأسها في حضني وأخذت أمسح بيدي على رأسها وجسدها، فترة طالت أم قصرت.. لا أدرى.

(٤٩)

سمعت رنين الهاتف، كانت مدام جميلة. سألتها بلهفة عن الرضيع فقالت: تعيشي انتي. ثم أخبرتني أنها عندما كانت تحمله على صدرها تقيأ كل ما في بطنه عليها، وبدأ صوته في الخفوت قليلاً.. قليلاً.. إلى أن تلاشى تماما، فاتصلت بابنتها نبيلة التي جاءت على الفور، وكشفت عليه، وأكدت أنه مات ، وقامت بلفه في قماشة، ونزلت هي وحنان فقابلتهما قمر لكنها لم تشم رائحة ابنها هذه المرة ودفنتاه في نفس المكان الذى ولد فيه، وأخذت أربت على قمر التي لم ولن تدرى أن ابنها دفن هناك وأنها حرمت منه ولن تراه مرة أخرى.

(٥٠)

سمعت صوتاً يشبه صراخ قمر، لم أكن متأكدة، فنظرت من شباك السيارة، وللمرة الأولى أرى كلبين من تلك الكلاب الشرسة المخيفة التي ترافق قمر هذه الأيام، لكنني لم أكن متأكدة أنه صوت قمر فذهبت إلى العمل، وعندما عدت توجهت إلى نفس المكان فسمعت صوت قطة تصرخ. مشيت في اتجاه مصدر الصوت. فإذا بي أرى ثلاثة من تلك الكلاب وكان أحدها يمسك بفمه قطة من رقبتها ويطوحها يميناً ويساراً وأنيابه تنغرس في رقبتها والقطة تصرخ، فأصبت برعب وأمسكت بحجر صغير التقطته من على الأرض وألقيته عليه ففتح فمه فسقطت على الأرض.. تحركت القطة خطوة واحدة لكنها سرعان ما ارتمت ورقبتها نصف مقطوعة وهي تجر نصفها السفلي في محاولة أخيرة للنجاة، لكنها سرعان ما سقطت ميتة.

في تلك اللحظة تملكتني قوة من أجل إنقاذ قمر، فنظرت أسفل السيارات المركونة وأخذت أنادي عليها، لم أرها، رأيت كلباً يشبهها وله نفس لونها، لكنني سرعان ما تأكدت أنه ليس قمر، لأن له ذيلاً وهي ولدت بلا ذيل.

قررت الاتصال بعمر لأخبره أن قمر في مشكلة، وشرحت له حكاية تلك الكلاب الشرسة وأخبرته أنها تحت إحدى السيارات ولا تستطيع أن تهرب منهم فقال لي: سأنزل لهم.

أحسست بخوف شديد عليه من تلك الكلاب المتوحشة فأسرعت وصعدت للمنزل وأخبرته - كذباً أنهم يريدون فقط أن يتزوجوها - ثم ذهبت إلى بلكونة الحمام - وهى الشرفة الوحيدة التي نرى من خلالها الشارع، ورأيت بائع الفول الحراتى الذى تقف عربته قرب منزلنا يمسك بعصا ويهش تلك الكلاب فجرت كلها، وإذا بي أرى قمر بينهم!

(٥١)

في صباح اليوم التالي رأيت قمر وحدها فنزلت مسرعة، وددت لو أقبلها وأقبل يديها وآخذها في حضني وأقول لها، وحشتينى يا قمر.. وحشتينى.. وما أن بدأت أضمها إلىّ حتى تهاوت إلى الأرض، ولاحظت أن بطنها منتفخ فأدركت أنها حامل، ورأيت جرحاً عميقاً في أسفل بطنها، بدا وكأن حلمة أحد أثدائها قد انتزعت وأصبح مكانها فراغاً مليئا بالدم، فأدركت أن هذا الجرح تسببت فيه تلك الكلاب المتوحشةً، فصعدت للمنزل لإحضار الإسبراى - المضاد الحيوي - حتى لا يتلوث الجرح، لكنني وجدت الزجاجة فارغة، فاتصلت بعدة صيدليات فلم يرد أحد، فنزلت للصيدلية التي بجوار المنزل فوجدتها مغلقة وملصقاً عليها ورقة مكتوب فيها: «الصيدلية مغلقة تضامنا مع الشعب المصري ضد مصلحة الضرائب.. فذهبت إلى صيدلية أخرى فوجدتها مغلقة أيضا تضامنا مع الشعب المصري، فأحضرت لها من المنزل مركيوريكروم وقطنا ونظفت لها الجرح، وقدمت لها الطعام فلم تأكل، ظلت

راقدة في حالة إنهاك بعد الاغتصاب الوحشي، ووضعت يدى على الأرض تحت خدها وحضنت خدها الآخر بيدي الأخرى وأخذ أمسح بيدي على رأسها وجسدها مرات كثيرة حتى أحسست أنها في حالة أفضل قليلاً .

(٥٢)

جاء يوم الجمعة، اليوم الذى أنتظره طوال الأسبوع حتى أستيقظ وقتما أشاء وأشرب الشاي وأفطر على مزاجي، لكن لا هذا ولا ذاك حدث، فقد صحوت على صراخ قمر فنزلت ورأيتها مكومة على الأرض وبجوارها مدام جميلة وحنان، فسألتهما عما حدث، فأخبرتني أنها في الثالثة صباحاً استيقظت على صوت تلك الكلاب الشرسة، وكانت قمر تختبئ منهم تحت إحدى السيارات، كانت تصدر أصواتاً أشبه بالبكاء وأنها - تكمل مدام جميلة - عملت بنصيحتي وألقت ماءً على تلك الكلاب فخرجت قمر خائفة من تحت السيارة، وما أن فعلت ذلك حتى هجمت الكلاب وعضتها وأخذت قمر تصرخ وتعوى، لكن لم يستطع أحد النزول إليها في تلك الساعة المتأخرة.

في الصباح المبكر نزلت، فرأيت قمر معضوضة ثلاث عضات عميقة في ساقيها من أعلى، فحاولت تنظيف الجرح بالمطهر لكن قمر ظلت تصرخ رافعة قدمها اليسرى ولا تستطيع لمس

الأرض، ظلت مكومة على الأرض وظهر العظم من جرح ساقها المنهوشة.

ولهول ما رأيت أحسست برغبة شديدة في حمايتها، ولم يكن عندي مكان آخر أضعها فيه غير «منور» عمارتنا. عرضت هذه الفكرة على مدام جميلة فاستحسنتها. وحملنا قمر من تحت إبطها، وبصعوبة شديدة سرنا بها ببطء ناحية باب «المنور»، وما أن اقتربنا منه حتى تراجعت قمر للخلف ورفضت الدخول، وعادت إلى الجراج مرة أخرى، أعدنا المحاولة حاملة إياها بين ذراعي، كاد قلبي يتوقف وأخذت(أشحر) كالحمار، أدخلناها وأغلقنا عليها الباب.

وأثناء عودتي لعمارتنا نظرت إلى قمر من خلال السلك الذى يحيط بالواجهة الأمامية للمنور، فرأيت أجمل عينين عسلياً لونهما وأنبل وجه، كانت تبكى بصوت عال وأعلم أن الجيران سيتضايقون من هذا الصوت - وربما تظل تعوى طوال الليل - فذهبت وفتحت الباب فرأيتها واقفة على صندوق خشبي قديم بجوار الباب حتى تستطيع رؤية الخارج من خلال السلك. أخذت تنظر إليّ وإلى الأرض فقلت لها: أنا عارفة إنك متقدريش تنطي يا قمر. حملتها بصعوبة وضَمَمْتُها بحنان وحب إلى صدري وأنزلتها على الأرض، كانت لحظة تساوى الدنيا وما فيها.

(٥٣)

بعد عدة أيام اتصلت بي مدام جميلة وأخبرتني أن قمر ولدت في الحديقة الجرداء التي بجوار منزلها، في مكان خفي لا يستطيع الأطفال الأشرار ولا كلاب جهنم أن يصلوا إليه، فذهبت مهرولة وأخذت أنادى عليها. وبعد عدة دقائق خرجت لى من تحت كوم أغصان النخيل وبعض أغصان الأشجار اليابسة، وأخذت أمسح على رأسها وأقول لها: حمد الله على السلامة يا قمر، لكنني لاحظت أنها خائفة، تتلفت يميناً ويساراً وتطيل النظر إلى تلك الكومة التي يعيش فيها أطفالها. قدمت لها بعض الطعام فأكلته بسرعة ثم لحقت بصغارها تحت الكومة.

(٥٤)

مرة أخرى أستيقظ في الليل على نباح كلاب جهنم. كانوا يحيطون بمخبأ قمر، نظرت ناحية شرفة مدام جميلة فرأيتها هي وزوجها وحنان يهشون تلك الكلاب، وبعد فترة طويلة ابتعدت الكلاب.

في صباح اليوم التالي رأيت قمر تجرى في الساحة كالمجنونة، فنزلت فورا، فرأيتها تحاول الولوج إلى حفرة تحت إحدى العمارات. لم تستطع لصغر الحفرة، ورأيتها تأتى إلى الجراج

الخاص بعمارتنا وتحفر بيديها في الأرض، ففهمت أنها تبحث عن مكان آمن لأولادها. لكن بلا جدوى، وسرعان ما أصابها اليأس فهرعت مرة أخرى إلى أطفالها.

(٥٥)

في اليوم التالي قابلت مدام جميلة بجوار عشة قمر، التي كنت قد بحثت عنها بلا جدوى، فأخبرتني أن بعض الأولاد جاءوا وفي يدهم عصا طويلة لضرب قمر، فتركت أطفالها وجرت مذعورة، وأنهم اقتحموا عشتها وسرقوا ثلاثة جراء وانطلقوا بهم، لكن مدام جميلة صرخت فيهم من النافذة فخافوا وأعادوا الجراء إلى العشة وأخبرتني أيضاً أنها ذهبت إلى أب هؤلاء الأطفال وقالت له: «مش حرام عليك تطلع ولادك مفيش في قلوبهم رحمة، حرام عليك، ده إنت لسه راجع من الجامع، أوعدني وإنت راجل صعيدي وكلمتك واحدة أنهم ما يقربوش للكلبة دي تانى وما يحاولوش يسرقوا أولادها.. كده يموتوا، دول لسه بيرضعوا». ثم أخذنا أنا وهى نطعم قمر، وأثناء ذلك جاء رجل يركب سيارة فيات وقالت لى مدام جميلة وقد بدا عليها الضيق: إنه رآها مرة وهى تبحث وتنادى على قمر، وعندما جاءت قمر علق بسخرية واستهزاء: تعالى لماما.. تعالى لماما.. فتألمت من سخريته لكنها لم ترد عليه، وأخبرتني أيضا أنها بالأمس سمعت صراخ قمر، فهرعت إلى الشرفة، لترى البستاني الذى كان يسقى الحديقة المجاورة وقد أغرق عشة قمر التي خرجت منها وهى تعوى

فنزلت حنان مسرعة وقامت بإخراج الجراء كلها وأحضرت رملاً نظيفا كان أمام العمارة يستعمله أحد الجيران لتغيير حمامه، وفرشته لهم، وعندما سمعت ذلك أخذت أدعو لحنان بسعادة الدنيا والآخرة.

(٥٦)

اليوم أول مرة أرى جراء قمر الجدد، أحدهم لونه بيج والآخر بنى فاتح، أما الثالث فهو أبيض على بقع سوداء. أعشق الكلاب الوليدة، لكنه فرح مشوب بالحذر، وبالخوف من تكرار المصائب من قتل وتسميم واختفاء. فرحتي جعلتني أقترب منهم وأمر بإصبعي على رؤوسهم. ثم سمعت صوصوة تأتى من بعيد فذهبت ناحية الصوت لأرى أحد الجراء خارج العشة ويحاول الدخول إليها، لكنه لا يستطيع لوجود حجارة كبيرة عند الباب، حملته وأدخلته إلى العشة، ثم أطعمت قمر التي ما أن أكلت وشربت حتى نامت وهى في حالة إنهاك شديد.

(٥٧)

لم تكن هذه مثل كل الليالي، سمعت صراخ قمر خمسة عشرة دقيقة متواصلة، ورأيت كلاب جهنم تخرج من عندها وصراخها مازال يدوى. لم أدر ماذا أفعل، فقد كانت الساعة الثالثة صباحاً.

أول ما شقشق الصبح ذهبت إليها. ناديت عليها. رأيتها تخرج في بطء شديد من تحت إحدى السيارات، وهالني ما رأيت: انتزعوا جزءًا كبيراً من فروة رأسها، بالإضافة إلى جرح كبير بالقرب من أذنها اليسرى. لعدة ثوان وجمت، لكنني بعد ذلك سارعت بإخراج المرهم من الحقيبة التي معي ووضعت طبقة سميكة منه على رأسها وأخرى على أذنها، وانتابتني حالة حزن وهم وإحساس بالعجز المطلق.

(٥٨)

في اليوم التالي رأيت رجلاً يتحرك بجوار عشة قمر، فصرخت من الشرفة إلى داخل البيت: الحق يا عمر.. الحق قمر.. فنزل مسرعاً وتابعته أنا بالموبايل وقال لى: إنه جارنا الأستاذ (رؤوف) زوج مدام (جميلة) مع ابنته (حنان). نزلت فرأيته يضع سياجاً حديدياً قوياً حول عشة قمر وأولادها، كان جالسا على ركبتيه ويداه مجروحتان ينزف منهما الدم من آثار ربط أجزاء السياج بأسلاك قوية حتى لا تقع وحتى لا تنفذ الكلاب المتوحشة إليهم. تساءلت ما الذى يجعل رجلاً في حوالى الخامسة والستين ينحني على الأرض ويتعب ظهره وتنجرح يداه لكى ينقذ حياة بعض الكلاب، إلا رحمة وإنسانية وضعها الله في قلبه. قمت أنا وحنان بتنظيف العشة التي امتلأت بأكياس النايلون القديمة وأوراق الأشجار اليابسة وسعف النخيل وعلب فارغة، وأثناء ذلك تدافعت حولنا الجراء وقالت لى حنان: «أصلهم جعانين، وقمر مش

قـادرة ترضعهـم» .. فقـد كانـت راقـدة عـلى الأرض بـلا حـراك..

كان الجـزء العلـوى مـن العشـة مـازال مكشـوفاً فأخذنـا نحـن الثلاثـة نبحـث عـن أغصـان النخيـل الملقـاة عـلى الأرض وأوراق الأشـجار الكبـيرة وفرشـناها فـوق سـطح العشـة حتـى تقيهـم المطـر، وجرحـت أيادينـا كلنـا مـن أشـواك تلـك الأغصـان الحـادة المدببـة. وقـد تـرك المهنـدس رؤوف بـاب العشـة مفتوحـا لـكى تدخـل وتخـرج قمـر، وقمـت وحنـان بدحرجـة حجـر كبـير كي نضعـه عنـد بـاب العشـة حتـى لا تخـرج الـكلاب الصغـيرة. وفى أثنـاء ذلـك نزلـت مـدام جميلـة ومعهـا طبـق كبـير بـه أرز وشـوربة وقطـع دجـاج صغـيرة، فاندفعـت الجـراء تـأكل في نهـم شـديد وأخـذت أدعـو لتلـك العائلـة الجميلـة أن يبنـى اللـه لهـم بيتـاً رائعـاً في الجنـة.

(٥٩)

بعـد يومـين اتصلـت بمـدام جميلـة كي أشـكرهم مـرة ثانيـة عـلى بنـاء بيـت آمـن لقمـر ولأولادهـا، قبـل أن أكمـل شـكري قالـت لى:

- يـا فرحـة مـا تمـت.. جـاءني اليـوم بـواب العـمارة الـلي جنبنـا وقـال لى إن فيـه سـكان بالـدور الثـاني والثالـث طلبـوا منـه هـدم بيـت قمـر وطردهـا هـي وأولادهـا وكـمان هيعملـوا محـضر لـرؤوف في القسـم.

فانزعجت كثيراً وقلت لها: «نروح لهم أنا وانتى مع بعض.

فقالت: «جوزي قال ماتروحيش».

فرددت عليها قائلة: «أنا حروح لهم لوحدي».

سألت عن بواب تلك العمارة واستفسرت منه عن رقم الشقة التي يريد أصحابها هدم بيت الكلاب، فأخبرني عن رقم الشقة. صعدت وضغطت على الجرس ففتح لى رجل في حوالى السبعين. قلت له:

- حضرتك عايز تهد بيت الكلاب؟.

- أيوه.

- بس دي كلاب بترضع وبتيجى كلاب شرسة تهجم عليهم هم وأمهم بالليل.. يعنى ممكن كلهم يتقطعوا حتت.

وانا مالي.. طظ فيهم

- يعنى مش عايز تعمل خير علشان ربنا يكرمك؟

صمت .

- طيب ممكن تديني مهلة شهر لغاية ما أشوف حل للمشكلة ؟

صمت .

(٦٠)

بعد بضعة أيام اتصلت بي مدام جميلة وأخبرتني أنها رأت رجلين بجوار عشة قمر فنزلت مسرعة وسألتهما عما يريدان، فأخبرها أحدهما أنه جاء بالنيابة عن سكان العمارة لكي يهدم هذه الكومة.. وأشار إلى عشة قمر. وسألتني إذا كنت أعرف أحداً عنده فيلا أو عزبة أو شيء من هذا القبيل، فأجبتها بالنفي. وتملكني اليأس، لكنني على الفور فكرت في منور عمارتنا. أيقظت عمر لكي نتحرك سريعاً وننقل قمر وأولادها إليه قبل أن يأتي معول الهدم، وأخبرت البواب وزوجته بما أنوى فعله. وعدتهما بأنني سأعطيهما مالاً إذا قاما بتنظيف المنور يومياً، وبأنني سأشترى الفنيك لتجنب أي رائحة قد تؤذى الجيران. ثم بدأت أنا وعمر في نقل الجراء، وما أن وضعناهم في المنور حتى انتابتهم حالة رعب وأخذوا يصوصوون واندفعوا إلى أركان المنور يدفنون رؤوسهم وأجسادهم الصغيرة فيها، وكانت قمر تسير خلفنا أنا وعمر وهى مرعوبة وتصوصو هي الأخرى وكأنها تسألنا: إلى أين تأخذان أطفالي؟ ووصلت معنا إلى باب المنور ووقفت خارج الباب تنظر إلي أطفالها كلهم في الداخل وتبكى. لكنها في النهاية - وبعد تردد - دخلت، فاندفعوا كلهم إلى حضنها وأخذت تبحث عن مكان تدخل فيه هي وأطفالها فرأت في الحائط فتحة كبيرة نوعاً ما فدخلت فيها وتبعها أطفالها.

وبعد وقت قليل جاءت مدام جميلة لكى تطعم قمر وأولادها.

وقسمنا مواعيد إطعامهم: في السابعة صباحاً لبن وسيريلاك، وأطعم قمر أرز بشوربة خضار وما يسمى «بالعكش». ثم تأتي هي لإطعامهم بعد ذلك مرتين مرة في الواحدة ظهراً ومرة أخرى في السابعة مساء. وحين دخلنا المنور خرجت لنا الجراء ثم خرجت قمر.. أثار حناني جرو لونه أبيض في أسود وأردت أن أهجم عليه وأغرقه في جحيم من القبل، وما أن اقتربت منه حتى هرب ودخل في تلك الحفرة التي في الحائط.. ثم اضطررت للعودة للخلف لكى يخرج ويأكل، وكلما هممت بالهجوم عليه تقول لى مدام جميلة: «علشان خاطر ربنا سيبيه يأكل» . فأتراجع، وفى إحدى المرات وبعد أن اطمأن أنني بعيدة خرج لياكل، اقتربت ببطء ووقفت أمام تلك الفتحة وسددتها بجسدي، فنظر هو إليها وإلىّ فعرف أنه في المصيدة، فهجمت عليه وحملته وحضنته وأخذت أقبله مائة قبلة في الدقيقة وأربت على رأسه الصغيرة الناعمة، فقال لى بمنتهى الشجاعة: حرام عليكى.. ده مش حب.. ده انتي بتاكليني .. عمرك ما شفتي كلب زيي؟

فرددت عليه: أيوه ح اكلك لأنك صغنن وكميل..

وهجمت عليه

قبلات

وأحضان..

فاطمأن لى وأخذ يلعق ذقني وأنا مستمرة في التقبيل.

(٦١)

هـذه اللحظـات السـعيدة لم تـدم طويـلاً، ففـي مسـاء أحـد الأيـام سـمعت نبـاح الجـراء آتيـاً مـن البـدروم، وسـمعه أيضـا زوجـي وقـال لى: إن هـذا الصـوت يـؤذى الجـيران الذيـن يسـكنون في الأدوار الأرضيـة، وأنهـم سـيأتون شـاكين لى، فقلـت لـه: إذا مـا جـاء الجـيران سـأخرج لهـم أنـا بصفتـي أم هـذه الـكلاب.. ثـم عاتبتـه: لأنـك أنـت مـش أبوهـم.. لكنـه قـال غاضبـاً: أنـا راجـل البيـت، وأخذنـا نتشـاجر .. فقـررت الاتصـال بمـدام جميلـة لتحضر طعامهـم مبكـراً فربمـا كانـوا ينبحـون جوعـاً.. وبالفعـل جـاءت وأكلـوا وشربـوا لكننـي ظللـت خائفـة مـن أن يجوعـوا في منتصـف الليـل ويعـود النبـاح .

(٦٢)

في صبـاح أحـد الأيـام، عندمـا كان الأسـتاذ رؤوف يصلـح سـيارته القديمـة، ظهـرت سـيارة رماديـة نـزل منهـا رجـل طويـل يحمـل حقيبـة سـوداء، سـار ناحيـة الحديقـة المجـاورة وأخـرج كامـيرا وصـور عشـة قمـر ثـم خـرج مسرعـاً، فاسـتنتج الأسـتاذ رؤوف أن أحـد السـكان شـكاه إلى البلديـة بحجـة أنـه بنـى عشـة للـكلاب تحـدث قـذارة بالمـكان، وسـكان تلـك العـمارة المفـروض أنهـم

يريدون بناء حديقة - هم الذين لم يفكروا في ذلك طيلة عشرين عاما - الأمر الذى جعله يقوم بهدم العشة حتى يمحو أثر «التعدي المزعوم».

(٦٣)

عرفت الآن سر الصرخات التي كنت أسمعها ليلاً قبل أن تموت بلبل، وسر العضات والجروح العميقة التي كنت أراها على جسدها العجوز. كانت تستميت في الدفاع عن قمر وعن أحفادها. وعلى الرغم من كراهيتي لها في بعض الأحيان أشعر نحوها الآن بامتنان تأخر موعده. فقد كانت تندفع وسط الكلاب الشرسة وينالها ما ينالها من أذى لكى تبعدهم عن قمر وأولادها، وهى واحدة وهم كثيرون، لكن شاء الله لها أن تموت من الشيخوخة، وربما ماتت مسمومة، أو من الصديد الذى سرى في جسدها بعد أن التهم عينها اليمنى تماما ولم يتبق منها سوى خلفية لحم أحمر.

أنا الآن أفتقدها، وأفتقد كل الموتى، كل الوجوه التي غابت ولن تعود.

(٦٤)

ما أسوأ شيء يمكن أن يحدث للون الأخضر؟

رأيت مجزرة الأشجار، الحديقة المجاورة لمنزل مدام جميلة، والتي كانت فيها عشة قمر وكانت مليئة بأشجار كثيرة، رأيتها كومة خشب وأوراق شجر يحملها شاب ويلقى بها بعيداً. وبقيت مجموعة من الجذوع المبتورة كبقايا جسد بترت أطرافه وبقى وحده وسط الركام. لحسن الحظ تركوا شجرة واحدة كانت صديقتي، كنت أستمتع بصوت زقزقة العصافير فيها، كأنني أستمع إلى «الفصول الأربعة» لفيفالدى، ألم يسمع هؤلاء الجزارون أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان يقول لجنوده قبل المعارك: «لا تردموا بئراً ولا تقطعوا شجرة، ولا تقتلوا راهباً في صومعته» ؟

نظرت إلى كومة الأشجار التي قُتلت ثم نظرت إلى السماء وشكوت حزني وهمى إلى الله.

(٦٥)

بعد أن أطعمنا قمر وأولادها أنا وجارتي الجميلة مدام جميلة، أغلقنا عليهم الباب. وفجأة سمعت صوت امرأة تتكلم بحدة، فأخذت أتلفت حولي عدة مرات بحثاً عن مصدر الصوت، إلى أن رأيت جارتنا التي تسكن في الدور الأول تصرخ في وتقول لى إن الحاج زوجها متضايق جداً من الكلاب، ولا ينام في الليل إلا قليلاً، وأنها ستتأتى بمفتاح المنور من البواب وستطردهم جميعاً وأخذت تصرخ وتتوعد. أردت أن أقول لها: إن كل إنسان يعمل بأصله، لكن مدام جميلة غمزت لى حتى لا أرد عليها.

وأثناء عودتي مع مدام جميلة إلى منزلها سمعت صوتا خلفي ينادى علىّ: يا أم عمر.. يا أم عمر.. فنظرت ورأيت الشاب الذى يعمل في مكتب بالدور الأرضي بعمارتنا. توقفت فقال: أنا بلغت الحاج فقال إنه مش هيسكت على موضوع الكلاب ده، فتضايقت وأخذت أسأل مدام جميلة ماذا سنفعل الآن؟ فأجابتني بمنتهى الإيمان والثقة بالله وقالت: ربنا هيحلها. لكنني كنت متشائمة، لأن كل أمر في حياتي تفاءلت فيه، يحدث عكسه فأصبحت أخاف أن أتفاءل، فمن الذى يستطيع أن يعتنى بثمانية كلاب وأمهم؟ ثم نظرت إلىّ مدام جميلة وكأنها قرأت ما الذى يدور في عقلي، وأصرت: ربنا هيحلها.

(٦٦)

كان لابد من التحرك سريعاً للبحث عن مأوى لقمر وأطفالها، فاتصلت برئيس جمعية الرفق بالحيوان الدكتور أحمد الشربيني، إلا أنه اعتذر بأن المأوى الذى عنده لعلاج الحيوانات فقط وليس للإقامة الدائمة. ثم نصحني بالاتصال بالأستاذة منى خليل وأعطاني رقم تليفونها، لأنها تمتلك مأوى كبيرا للكلاب، فاتصلت بها وأحسست أنها سيدة حنون وفاضلة، وعندما أخبرتها بالمشكلة قالت لى: تعالى الأول شوفي المكان وأنا تحت أمرك.

(٦٧)

ذهبت أنا ومدام جميلة إلى ذلك المأوى، وكان في منطقة شبرامنت بجوار الأهرام. المكان عبارة عن مساحة كبيرة من الأرض بها كل أنواع الكلاب، الكلاب الصغيرة مثل الجريفون واللولو في أقفاص كبيرة وحدها، والباقي كله خارج هذه الأقفاص، ومعظمهم من النوع البلدي والولف، وكثير منهم به عاهة، كأن يكون بيد واحدة أو ساق واحدة. والتف حولنا الكلاب فخفت أنا ومدام جميلة، وأمسكت كل منا يد الأخرى، لكن الحارس قال: ماتخافوش.. مش هيعملوا لكم حاجة، وهناك أيضا - وللمرة الأولى - أرى كلباً عجوزاً قبيحاً في أخريات أيامه. قلت سبحان الله، حتى ملامح وجوه الكلاب

تتغير مع الشيخوخة. ونظرنا نظرة سريعة على المكان ثم شكرنا الحارس وانصرفنا.

أخبرتني مدام جميلة أن كل الكلاب ستلتف حول قمر للزواج منها، وممكن أن يهجموا عليها هي وأولادها، فاستبعدنا هذا المأوى، ثم أخذنا نتحدث عن الأستاذة منى خليل وكيف أنها لو كانت تريد أن تصبح مليونيرة لطردت كل هذه الكلاب وباعت الأرض التي ستدر عليها ملايين الجنيهات بسبب روعة موقع ذلك الملجأ، لكنها لم تفعل، بل تتحمل تكلفة إطعامهم وشربهم وعلاجهم ابتغاء وجه الله دون انتظار مقابل أو تقدير أو حتى كلمة شكر من أحد.

(٦٨)

في ظلمة الليل الذى أعيش فيه جاءتني النجدة من الله، لأن من يظن بأكرم الأكرمين الخير سيجده إن شاء الله. فقد اتصلت بي مدام جميلة وأخبرتني أنهم وجدوا مكانا لقمر، وقالت إن ابنتها الدكتورة نبيلة أثناء وجودها في المستشفى الذى تعمل فيه، سألت أحد زملائها الأطباء ماتعرفش مكان يأخذ كلبة بلدي وأولادها الثمانية؟ فقال: ده لسه أبونا «ستافروس» كان بيتكلم معايا في هذا الموضوع، وأنهم محتاجين للكلاب في الدير الموجود بوادي النطرون، وأكملت جميلة البشرى: فذهبت على الفور إلى أبونا الذى فرح بقمر وأولادها حتى قبل أن يراهم، لكنه قال لى: بشرط واحد..

إنكم مش ح تشوفوهم مرة ثانية، لأنهم هيكونوا عند الرهبان في قلاياتهم «صوامعهم» داخل الدير.

كان شرطا قاسيا، لكننا وجدنا في هذا الحل نجدة إلهية. فاتفقت الدكتورة نبيلة مع أبونا ستافروس على اليوم والساعة التي ستتأتى فيها السيارة.

(٦٩)

جاء يوم الفراق، حضرت المظروف الذى كتبت فيه تاريخ ميلاد قمر هي وأولادها وشهادات التطعيم.

نزلت إلى المنور وقمت بإغلاق الفتحة الموجودة في الحائط - التي من الممكن أن تختبئ فيها قمر هي وأولادها من الغرباء القادمين - بأكياس كبيرة ممتلئة بزجاجات المياه الغازية كانت بجوار الحائط. ثم جاء الأستاذ رؤوف وحنان التي حضنت قمر وأخذت تربت عليها وربطت عنقها بطوق بنى جميل، فزادت قمر جمالاً على جمال، وأصبحت أشبه بكلبة لابرادور بيضاء، ثم قامت بربط السلسلة الطويلة من رقبتها وربطت طرفها الآخر في سور السيارة النقل الصغيرة التي ستأخذهم إلى الدير، والتي كانت ممتلئة بالزيت والمكرونة ومواد غذائية أخرى للرهبان والقساوسة بالدير، ثم دخل السائق واثنان من مرافقيه المنور فخافت قمر وجرت مسرعة وحاولت الدخول إلى تلك الفتحة لكنها لم تستطع، وأخذ كل منا يحمل طفلاً من أطفالها إلى السيارة

وكانـوا جميعـاً في حالـة رعـب، لدرجـة أن بعضهـم تبـول عـلي يـد مـن يحملـه. ثـم جـاءت لحظـة إخـراج قمـر فحملتهـا مـدام جميلـة وحنـان وأنـا ووضعناهـا في السـيارة مـن الخلـف، وقامـت حنـان بالتأكـد مـن قـوة ربـط السلسـلة التـي في رقبتهـا بإحـدى فتحـات الصنـدوق الخلفـي للسـيارة حتـى لا تهـرب قمـر، التـي مـا إن جلسـت حتـى تجمـع حولهـا أطفالهـا وهـم في حالـة رعـب، وأخـذت قمـر تنظـر إلينـا وكأنهـا تسـألنا مـا الـذى يحـدث لنـا؟ وإلى أيـن يأخذوننـا؟ لمـاذا تبعدوننـا عنكـم؟ وأرادت حنـان أن تجلـس بجوارهـا في السـيارة مـن الخلـف لكـن والدهـا رفـض ثـم أخبرهـا السـائق أنهـا لـو فعلـت ذلـك فسـيأخذون مخالفـة للسـيارة. ثـم قـام برفـع سـور مؤخـرة السـيارة وأغلقـه بعمـود مـن الحديـد مـن الجانبـين وذهـب خلفهـم الأسـتاذ رؤوف وحنـان في سـيارتهم، وأخـذت مـدام جميلـة تدعـو لهـم وتشـير بيدهـا إلى السـيارة وترسـم صلبانـا في الهـواء. أمـا أنـا فقـد انفجـرت في بـكاء مريـر.

*** مريم البنا**

*** نائب رئيس تحرير الأهرام**

صدر لها:

- «تسمح كتفك من فضلك» - مكتبة مدبولي

- «رائحة الوجه القديم» - دار شرقيات

obeikandl.com